كلية الآداب بقنا

قسم التاريخ

محاضرات

فـــي

القضايا المجتمعية

إعداد

دكتور / محمد عبدالشافي المغربي

أستاذ تاريخ العصور الوسطي .م

رئيس قسم التاريخ

2023/2022 م

مقدمة :

يسعدني أن أقدم لطلابي بجامعة جنوب الوادي مجموعة محاضرات في مادة قضايا مجتمعية ، وهي عبارة عن مجموعة أبحاث نشرت في عدد من المجلات الأكاديمية تم أختصارها في هذا الكتاب والغاية من هذه المحاضرات أن تكون مفيدة للراغبين في التزود من الثقافة التاريخية العامة حيث أنها تدور كلها حول المجتمع وقضاياه المختلفة الخاصة بالسكان والمرأة و الصحة الإنجابية و المسنين و العميان و المواطنة و حقوق الانسان ، أرجو أن تعم الفائدة من هذه المحاضرات .

والله الموفق

د/ محمد عبدالشافي المغربي

رئيس قسم التاريخ

قضية الأُمِّ والمشكلات السكانية

مقدمة :

ليس جديداً أن يتصدى باحثٌ لوضع المرأة في العصر البيزنطي، فقد سبقه باحثين أجلاء تصدوا لمعالجتها على المستوى الدولي والمحلي، ولعل هذا يُزيدُ في دقة مناقشة الموضوع المطروح، وقد يسبق الوهم إلى أن الستار أُسدِلَ نهائياً على الموضوع ليجعل الولوج في الموضوع – كما يُعتقد – غير ذي فائدة، ويبقى عزاءُ المرأُ لنفسه أن الرؤية التاريخية أو الإنسانية بشكلٍ عام لا تقف وحيدة الجانب عند وجهةِ نظرٍ ما، كما أنه لا تستطيع حدودٍ مهما كانت صارمة أن تنهي أية قضية فكرية، وعلى الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت المرأة، إلا أن موضوع 'الأم في العصر البيزنطي' لم يحظَ بالاهتمام على صعيد البيئة العربية وربما الدولية – على حد عِلم الباحث – فمعظم الأبحاث الأجنبية التي يحمل عنوانها اسم الأُمّ في العصر البيزنطي اقتصرت على أُمِّ الإله ثيوتوكس Theotoks وتناولتها من جانبٍ لاهوتي وهي كثيرة ومتنوعة مثل دراسة إيريني أرتيمي Erini Artemi وميشيل باسي Michele Bacci والعديد من المقالات خاصةً ما تم جمعه في كتاب قامت بتحريره ماريا فاسيلاكي Maria Vassilaki وذلك على سبيلِ المثال لا الحصر.

ولا توجد دراسةٌ مستقلةٌ تناولت الأم والأمومة في المجتمع البيزنطي سوى بضع وريقات في مقالة لبيتر هاتلي Peter Hatlie وعنوانها "صورة الأمومة والذات في الأدب البيزنطي" ، ورغم أن عنوان الدراسة يوحي بتناول الأم في الدولة البيزنطية على إطلاقها، إلا أن محتواها لم يتضمن سوى عرض لمشكلة البحث وتجميع مادته كونه ملاحظاتٌ موجزةٌ وعابرةٌ حول الأمهات وعالمهن في المصادر، وإحالات لبعض المصادر الأدبية والتاريخية التي يمكن أن نجدَ فيها ما يصنع موضوعاً عن صورة الأُمِّ في العصر البيزنطي، ومن خلال هذا الموضوع يطمح البحثُ إلى الإجابة على عدة أسئلة وقضايا مختلفة، هل كانت الأُمُّ البيزنطيةُ قادرة على التعبير عن ذاتها فعلياً، وليس قصراً عن التعبير البيولوجي بالرغم من تلك المؤشرات المعاكسة التي توضح الجمود الحركي والوظيفي الخاص بها؟ وهل المنتَج التاريخي المعلوماتي المعاصر قَدَّمَ صورةً للأم مغايرةً لوضع المرأة الذي شهده المجتمع وتعيشه المرأة في ذلك الوقت؟

هل رضخت الأم البيزنطية لمصيرها المحتوم الذي لا بد لها أن تقنع به، وكأن النساءُ مجبولاتٍ على المطاوعة والتسليم، وأن الطبيعة هي التي حكمت عليهن بذلك وليس الآخر الذي عَمِلَ بقصديةٍ منه على إيهامها أنها هي السبب في كل المآسي؟

هل أدت السلبية المضفاة على مكانة المرأة في المجتمع بوصفه مجتمعاً ذكورياً إلى اختزال وجودها في دورين لا ثالث لهما: موضع المتعة وآلة الإنجاب؟ وكيف كان الواقع الحياتي بالنسبة للمرأة الأم؟ هل اتفق مع أيدولوجية المجتمع أم اختلف؟ هل كانت الأُمّ البيزنطية من شريحة المرأة النمطية الخضوع أَمْ المرأة الانتقالية المتحررة؟ وما هو دور الأُمّ وتأثيرها في المجتمع البيزنطي؟ وما موقف المجتمع من قضية إنجاب الإناث دون الذكور؟ وهل الأُمّ مسئولةٌ عن الضعف الديمجرافي الذي أَلَمَّ بالدولة البيزنطية؟ فضلاً عن قضايا أخرى يناقشها البحث في موضعها مراعياً مشروعية التناول مثل تناول الإجهاض والعقم والولادة والرضاعة ووسائل منع الحمل على سبيل المثال وليس الحصر. وأخيراً وليس آخراً هل الأم البيزنطية نموذج يمكن استدعاؤه ليكون عينةً للحاضر.

أولاً : مكانة المرأة في المجتمع البيزنطي وتناقضها مع أيديولوجية الأمومة :

على الرغم من التناقض الواضـــح في نظرة وفكر المجتمع البيزنطي بين حواء التي أغوت آدم – ودفعته إلى الأكل من الشجرةِ المحرمة – وبين مريم العذراء رمز الطهر والعفاف – والتي يُجِلُّها البيزنطيون بوصفها أُمّاً طاهرةً والتي جاء ابنها المسيح ليطهر البشرية من خطاياها، وليطرح إمكانية الخلاص والحياة الأبدية، إلا أن الســبب الواضــح في هذا الأمر يرجع إلى تأثير المســيحية ورجال الدين الذين ركزوا على المقولات النمطية السائدة عن المرأة، والتي تنظر إلى النساءِ بوصفهن بناتِ حواء مصدر ومنبع الشرور التي أصابت الرجال منذ بدء الخليقة.

وأيديولوجية المرأة بشكلٍ عام في المجتمع البيزنطي مستقاة من مصادر وكتابات صيغت وكُتِبَت بأيدي رجال، وهي التي حددت وصـــاغت دور المرأة ووضـــعها وحقوقها وواجباتها، وفي الكتابات الهيجيوجرافية التي تناولت القديســـات ومعجزاتهن فقد كتبها كُتَّابٌ ذكورٌ، كما أن الكتابات التاريخية ذاتها وضعها مؤرخون ذكور.

فها هي كتابات القديس الناسك نيوفيتوس St. Neophytos - على سبيل المثال وليس الحصر - والتي جاءت كتاباته معبرة عن الكتابات الكنســية والديرية، فالمرأة من وجهة نظره ابنة حواء الآثمة التي تسببت بخطيئتها في البؤس والتعاسة للبشرية، وصفاتها المتأصلة في طبيعتها كالضعف والنزوع إلى الفسق والإغواء، دفعت هذه الصـــفات حواء إلى الانقياد للشـــيطان، ومن ثم أصـــبحت بذاتها أداة طيعة في يديه، والنساء من وجهة نظره شرٌ مستطير، والقوة والسلطان تجعلهن قوة للشيطان.

ويختزل "نيوفيتوس" قوة المرأة وشـــرها في الجنس، ويعتبره ســـلطة خفية تمارســـها المرأة على الرجل، وربما يكون هذا الأمر هو الذي دفعه إلى اعتناق حياة الرهبنة، هرباً من فكرة ممارســـة الجنس مع المرأة، ورغم موقفه المعادي هذا، فإنه يعترف بدور المرأة، وأن طبيعتها لن تكتمل إلا عندما تكون زوجةً أو أماً.

أما الكاتب البيزنطي "كيكاومينوس Kekaumenos" فقد رفض أي علاقة للرجل مع المرأة، خاصـــةً إذا كانت تتمتع بالجَمال، ففي هذه الحالة عليه أن يواجه ثلاثة أعداء "الشـــيطان والظرف والكلمات المثيرة".

وذهب العالِم اللاهوتي "ميخائيل جليكاس Michael Jlykas" بعيداً حين أجاب عن ســـؤال: هل ستكون هناك فروقاً بين الجنسين بعد البعث والنشور أم لا؟ وأجاب: إن حياة الرجل كانت أفضل قبل المرأة، وإلا فلماذا لم يُخلق الاثنان معاً منذ البداية! وبعد أن عرض مجموعة من الأفكار اللاهوتية أكد أن المرأة جنسٌ تابعٌ للرَّجل، والتبعية هنا كانت متضـــمنةً داخل عملية الخلق ذاتها، ومن ثَمَّ فإن عملية البعث ســـتعيد الرجل إلى كماله الأصلي.

ولم تكن بيزنطة جغرافياً حديثة العهدِ بهذا الفِكر المجتمعي عن المرأة، فقد عَبَّرَ قديماً "أبوللو دوروس Apollodorus" – السياسي والخطيب الأثيني في القرن الرابع قبل الميلاد – عن فكر المجتمع ما نَصُّهُ: لدينا العاهرات للمتعة، والمحظيات لعناية أجسامنا، والزوجات ليُنجِبن لنا الذرية الشرعية.

وعلى الرغم من أن المجتمع البيزنطي هو نفســـه الذي خلق هذا النموذج الأيديولوجي تجاه المرأة، وإن كان قد أســهم في تشـكيل عناصــره الكثير من العوامل، كالتكوين الذكوري لهذا المجتمع والمؤســسـة الكنسـية والقوانين المدنية وغيرها، والذي نظر إلى المرأة على أنها مصـدرٌ للخطيئة وأداةٌ للشـيطان، إلا أن المدهش هو ظلاله التي وجدناها في الكتابات القليلة التي وضـــعها نســـاءٌ بيزنطيات، مثل كتاب الإلكســـياد The Alexiad الذي وضعته الأميرة آنا كومينين، حيث وصفت فيه النساءُ بعباراتٍ ومصطلحاتٍ إذدرائية ، وإن كانت استثنت أمها وجدتها.

وشـاعرة القرن التاسـع الميلادي كاسـيا Kassia جعلت القبح بشـكلٍ عام لصـيقٌ بالمرأة، حتى وإن كانت جميلة.

فضـلاً عن ذلك فإن الأدب الرهباني بشـكلٍ عام يكتظ بنصـائح تصـب في الصـورة القائمة التي كانت عن المرأة في ذلك العصر. هذا بالإضافة إلى ما جاء في لوائح تنظيم الأديرة (التبيكا) التي عَبَّرَت عن موقف هذه المؤسسات الديرية في بيزنطة بوصف المرأة شيطان.

وعلى ذلك فإن عقيدة المجتمع البيزنطي التي كانت سـائدةً عن النسـاء إنهن عبيد، ولا يمكن السـيطرة عليهن، وأن مكانهن الصحيح هو البيت.

ولما كان إنجاب الأطفال هو المهمة الأســاســية والواجب الرئيســي للمرأة، فقد كان من الطبيعي أن تكون الأمومة وفقاً لأيديولوجية المجتمع هي الوظيفة الأســـمى للمرأة داخل الأســـرة والمجتمع البيزنطي، ولذلك نجد أن لغة الحديث عن المرأة عند ذِكر الأُمّ تتغير.

فقد اعتبر الأسـقف ثيوفيلاكت أوكريد Theophylact of Ochird الأمومة هي 'إرضــاءٌ للرب وخلاصٌ للأم'.

وميخائيل بســيللوس Mechael Psellos الذي كتب مرثيةً في وفاةِ ابنته الصـــغيرة ســـتيلياني Styliane التي وافتها المنية في الثامنة من عمرها، فلم يَفُته مدح أمه ثيودوتي Theodote، حيث ذكر أنها كانت تلزم مداومة قراءة الكتاب المقدَّس، وإن شـــخصـــيتها كانت تتمتع بالورعِ والتقوى، وإن هناك من اعتبرها من القديســـات، وأنها كانت خيرُ مثالٍ للزوجة الصـــالحة والأم المثالية الحنون، كل ذلك في خطبة جنائزية لرثاءها.

كذلك تعكس لنا المصادر التاريخية المكانة السامية التي نالتها الأمومة في المجتمع البيزنطي، وهناك أمثلةً كثيرةً تجلت في البطريرك نيقفور Nikephoros والبطريرك تاراســـيوس Tarasios اللذان كان لأمهاتهم الدور الأعظم في تربيتهم ونشأتهم.

ثانياً : المرأة البيزنطية ورحلة الأمومة (الزواج – القابلة – الولادة – قضـــية إنجاب الإناث دون الذكور – القماط والرضاعة) :

الأمومةُ هي رحلةُ اسـتقبال مولودٍ جديد، وفي هذا السـياق لا بد من تناول شـيء من المحطات والمراحل التي تمر بها المرأة، مثل الزواج والحمل والولادة والقماط والرضـــاعة، ثم قضـــية إنجاب الإناث دون الذكور.

- <u>الزواج</u>:

كان الزواج في المجتمع الروماني هو أســاس تكوين الأســرة، فقد عَرَّفَه القانون الروماني بأنه: "هو ما يعقده الرومان الراغبون في الاتحاد وفقاً لأحكام القوانين، ويُشـترط لصـحته أن يكون الرجال قد بلغوا الحُلُم، والنساء قد بلغن حد إطاقة الرجال، ويشترط أيضاً رضاء الوالد مقدماً، إذ أن رضاءه هو من الأمور الموافق لمقاصد القانون المدني والعقل الفطري معاً"

كانت المرأة في المجتمع البيزنطي خاضـــعة لإرادة والدها، فلا يمكنها الزواج إلا بموافقته، بل ويمكن أحياناً أن يرغمها على الزواج ممن لا ترغب فيه، وأن يقوم بفســخ عقدها وطلاقها، وإن كان هذا الحق قد مُنِحَ لوالدها، فإنه لم يُمنَح لوالدتها، فليس للأمّ أن تُطَلِّق ابنتها من زوجها أبداً، وعلى أية حالة فإن الزواج لدى البيزنطيين كان بمثابة رباط الحياة بين الرَّجُلِ والمرأة من أَجْلِ إنجاب الأطفال.

وفي ظِلِّ الكتاب المقدس كان البيزنطيون يبحثون عن علامات ورموز الألوهية في ولادة الطفل حتى كتب أحد المؤلفين: 'لأنه هكذا، فهو الله يكرس عبيده المستحقين في الرحم قبل أن يولدوا'.

- **القابلة :**

ارتبطت القابلة بالأم البيزنطية ارتباطاً وثيقاً، والقابلة في اللغة هي المرأة التي تساعد الوالدة وتتلقى المولود عند الولادة، والجمع قوابل.

ولم تكن بيزنطة أول من عَرِفَت القابلة، فقد ازدهرت في الحضـارة القديمة بما في ذلك مصـر، وبيزنطة وبلاد ما بين النهرين وإمبراطوريات البحر الأبيض المتوسط في اليونان وروما.

وكانت القابلة معترفٌ بها على أنها مهنةٌ أنثويةٌ في كل حضـــارة، وهي كانت حاضـــرةً دائماً أثناء المخاض من أجل مســـاعدة ودعم المرأة الحامل، ومعظم الكُتَّاب اليونانيين القدماء تحدثوا عن القابلات، و"سـقراط" يفخر أنه ابن قابلة، وخلال العصـور البيزنطية كانت صـورة القابلة تواصـل "اكتسـاب الاحترام والتقدير".

كانت بيزنطة مجتمعاً عالي التنظيم وكان لديها خدماتٌ حكومية واجتماعية متطورة أَثَّرَ ذلك على مهنة القبالة Midwifery حيث جعلوها مهنةً رسـميةً، وأصـبح لها مكانةً هامةً ومميزة، وشَـكَّلَت خدمات الرعاية الصـــحية التي تقدمها مهنة القابلة للنســـاء قيمةً اجتماعيةً كبيرةً، وتطور الأمر لتظهر أول مســتشـفى للقبالة Midwifery Hospital في هذا العصر.

وكانت مهنة القابلة تتمتع في الديانة المسيحية بالتقدير والاحترام، لذا كان على المرأة القابلة قبل مزاولة عملها أن تحصل على موافقة من الكهنة بوضعها الديني والأخلاقي.

وعلى الرغم من أنه كان هناك أطباءٌ في المجتمع اليوناني الروماني كتبوا بشـكلٍ إيجابي عن القابلة مثل هيروفيلوس Herophilos الذي وضـــع دليلاً للقابلات مما أدى إلى تحســـين وضـــعهن، وكذلك اليوناني ســـورانوس (98 – 138م) الذي تُرجِمت أعماله على نطاقٍ واســـعٍ إلى اللاتينية. وجالينوس Jalinos وغيرهم.

إلا أن الملاحَظ أن المعرفة العلمية للقابلات في هذا العصـر لم تتحسـن، بل كانت كل معرفتهن مسـتمدَةٌ مما أخذوه من السـابقات لهن مما تتوارثه الأجيال، وتركزت أدوارهن على تقييم وإدارة الألم أثناء المخاض، ومحاولة خلقِ وضعٍ مريحٍ وصحيٍ للأمهات وأطفالهن.

ولم يكن دور القابلة في بيزنطة يقفُ فقط عند عملية الولادة، بل امتد إلى مراعاة الأم المستقبلية أثناء شهور الحمل أو ما عُرِفَ برعاية ما قبل الولادة، وتحديداً فيما يتعلق بتغذية المرأة الحامل، إدراكاً منهم بأن الطعام الذي يتم تناوله أثناء الحمل يؤثرُ على كلٍّ من الأم والطفل.

وقد تخصصت بعض الطبيبات البيزنطيات في أمراض النساء Gynecology والولادة betetricc والأمراض الأخرى التي تتعلق بالنساء، بالإضافة إلى عملهن كقابلات. وبذلك تكون الأُمّ قد ارتبطت بالقابلة ارتباطاً وثيقاً، حيث تَرَكَّزَ عملها في تقديم الرعاية التوعوية والصحية خلال فترة الحمل والولادة، وما بعد الولادة.

- **الولادة :**

كان دور القابلة مع الأم البيزنطية مهمٌ للغاية أثناء عملية الولادة، حيث كان عليها أن تمتلكَ أدواتٍ معينةٍ لضمان ولادةٍ آمنةٍ، بما في ذلك الأعشاب وقطع من الضمادات الصوفية ووسائد، وكن يقمن بمحاولاتٍ ومساعداتٍ مختلفة لتخفيف آلام المخاض ، وكانت الولادة تتم عادةً في المنزل بمعرفة القابلة وبحضور الأقارب والأصدقاء، وكان يتم غسل المولود الجديد وتغطيته بلفائفٍ من الصوف لمدة سبعةِ أيامٍ من أجل تقويم جسمه وجعله جميلاً بعد الولادة، واعتُبِرَت الأم ومن ساعدها نجسٌ، ويتم استدعاء الكاهن لطرد الأرواح الشريرة، ولكن لا تستطيع الأم المشاركة في القربان إلا بعد أربعين يوماً.

ووفقاً للتشريعات البيزنطية مُنِعَ استدعاء المرأة للشهادة في المحكمة، وتم استثناء القابلات أو الطبيبات من هذا التشريع، حيث كان يتم استدعاء القابلات إلى ساحة المحكمة كشاهدات على عذرية فتاة، أو لمعرفة ما إذا كانت امرأة حاملاً أم لا، أو الإقرار بولادة طفل، أو النظر في تشكيك الأب في انتساب الطفل إليه، وغيرها من القضايا الخاصة بالمرأة والأم.

وكانت القابلة هي الشخصية الأولى لحظة الولادة لإعلان المرأة كأم، وقد يكون النفاسُ مؤلماً ينتهي بوفاة الطفل وأمه كما حدث مع الإمبراطور يودوكسيا Eudoxia التي وَلَدَت طفلاً ميتاً، وماتت هي الأخرى في 16 أكتور سنة 404م.

عانت الأُمّ البيزنطية من السحر والشعوذة، حيث كانا يمارسان على نطاقٍ واسع، وعادةً ما كان يَحضر الكاهن في الحالات الصعبة، حيث ينظر إلى هذا الأمر على أنه ناتجٌ عن السحر أو السحر الأسود، وكان يُعتقَدُ أن الكاهن وحده هو الذي يمكنه كسر هذه التعويذة.

وإذا حدث وتوفت الأُم بعد ولادتها، فإنها تُغَسَّل وتُكَفَّن بملابس أخرى نظيفة غير التي ولدت فيها، ثم يُصَلَّى عليها داخل الكنيسة، لأن الموت يكون قد طَهَّرَها.

- **القماط والرضاعة :**

القماط أو التقميط Swadding هو تدثير أو (لَفُّ) الطفل المولود من رأسه حتى أصابع قدميه في البطاطين أو الأقمشة المماثلة لتقييد حركة الرضيع، وهي عادةٌ لجأت إليها الأمهات في بيزنطة بهدف حماية الطفل، ولضمان تشكيل جسمه وأطرافه على الشكلِ الأمثل، وهذه العادة موجودة منذ القِدم، ومن أشهر صور الأطفال على هذه الحالة صورة السيد المسيح في المهد. وتتألف ملابس التقميط الموصوفة في الكتاب

المقدس من قطعة قماش مربوطة ببعضها البعض بشرائط تشبه الضمادات، وهذه الشرائط تحافظ على دفء الطفل، وتضمن أيضاً نمو أطرافه بشكلٍ مستقيمٍ.

وكان من عادة الأُسَرِ في أوربا أن ينامَ الطفل في غرفةٍ مظلمةٍ لفترةٍ بعد ولادته، اعتقاداً منهم أن الضوء الساطع يؤثر على قوةِ بصره، ولا ندري مدى انتشارها بين الأسر البيزنطية، ثم تأتي بعد ذلك مراسم التعميد الكنسي للمولود.

أما عن الرضاعة فقد حَثّت الكنيسة الأمهات على الاهتمام بصحة أطفالهن وإرضاعهن، كما حرصت الأم البيزنطية على الاهتمام بهذا الأمر، خاصة وهناك رأيٌ طبيٌ شائعٌ بين المجتمع يفيد بارتفاع معدل وفيات حديثي الولادة بسبب حرمانهم من الفوائد المناعية للبن السرسوب Colostrum (وهو لبن الأم الخالص في الأيام الأولى بعد الولادة، ويتميز بأنه سهل الهضم) ، فضلاً عن أن المجتمع لم يكن مهتماً بتمريض الأطفال، باعتباره جزءاً لا غنى عنه من الأمومة.

ويبدو أن ممارسة الرضاعة الطبيعية كانت مرتبطةً بالوضع الاجتماعي والاقتصادي للأسرة، حيث اعتادت الأمهات من الطبقة الأرستقراطية على توظيف امرأة كمرضعة Wetnurse لتقوم بهذه المهمة، وكانت تقوم بنفس هذه المهمة في حالة وفاة الأم، أو لأسبابٍ تتعلق بعدم تمكن الأم من إرضاع وليدها، ثم يتم فطام الرضيع تدريجياً في حوالي سنتين أو ثلاث سنوات من العمر، وإذا مَرِضَ الطفل بعد فترةٍ وجيزةٍ من الفطام، يوصَى بإعادة الرضاعة الطبيعية حتى يتم الشفاء.

- **<u>الأم وقضية إنجاب الإناث دون الذكور :</u>**

لم يختلف المجتمع البيزنطي عن المجتمعات الأخرى القديمة، حيث كان يعتبِر فيه الأُمّ متهمة بإنجاب الإناث دون الذكور، فولادة بنت في أوساط العائلات – خاصةً الأرستقراطية منها – هو أقرب إلى نذير شؤمٍ منه إلى بشرى سارة، ودائماً تكون الضحية الأولى لهذه البشرى غير السارة الأُمّ نفسها.

وربما ما جاء في رسالة التعزية التي أرسلها 'ليو' مطران مدينة سينادا Leo of Synada (940 – 1003م) إلى أحد أصدقائه يواسيه في وفاة ابنته، يفسر لنا شيئاً من نفور المجتمع من إنجاب الإناث في ذلك الوقت، حيث نهاه عن الحزن عليها، وطالبه بأن يكون أكثر ابتهاجاً وسروراً لكونها ماتت عذراء، ولأن الموتَ أنقذها من مشكلاتٍ عديدةٍ كانت ستقع فيها إن استمرت فرصتها في الحياة.

وهناك العديد من القصصِ لأسرٍ بيزنطيةٍ تطلب المساعدة من رجال الدين، فيضرعون لهم بالصلاة والدعاء لإنجاب طفلٍ ذكر. بل إن بعضهم كان يلجأ إلى السحرة والمشعوذين ليُحَضِّروا لهم الأعمال السحرية والتعاويذ لإنجاب الذكور.

كذلك كان هناك شواهدٌ كثيرةٌ تفيد بحدوث عمليات وأد للبنات – وإن كان ليس بظاهرة – وهجر للأطفال الرضع الذي كان يُفضي أحياناً إلى وفاتهم، وترى كاترين نيقولا أنه حتى وإن عانت الأسر سنوات طويلة من عدم الإنجاب، فإن إنجاب الأنثى لم يكن يجلب السرور إلى قلب الوالدين، وكان يرجع ذلك في المقام الأول إلى الأعباء والالتزامات المالية التي تقع على أسرتها عندما يشتد عودها وتصبح في سن الزواج، وبالأخص لو كانت من الأسر ذات الدخل المحدود، والممتلكات الغير كافية، ومن هنا كان وأد البنات أو هجرهن قاصراً على العائلات الفقيرة.

أَمّا إنجاب الذكور في عقلية الطبقة الحاكمة، فقد مُدِحَ النساء اللاتي ينجبن الذكور، وكانت نكبة على من تعذر لهن ذلك، بل إن هذا الأمر تم توظيفه بشـــكلٍ أو بآخر في المجتمع البيزنطي، فحين قام الإمبراطور مانويل (1143 – 1180م) بعزل البطريرك كوزماس الثاني أتيكوس Kosmas II Atticus بتهمة الهرطقة - بدوره قام هذا البطريرك بلعن رحم الإمبراطورة بيرثا ســـولزباخ Bertha of Sulzabach (1110 – 1159) في الكنيســـة أثناء الصـــلاة - وأعلن أنها لن تنجب طفلاً ذكراً، والعجيب في الأمر أنه حتى وفاتها ســنة 1159م لم تنجب الإمبراطورة إلا بنتان، على الرغم مما قدمته للكنيســة من هباتٍ وهدايا وصلوات، ولم يكن أمام الإمبراطور إلا الزواج من أخرى أنجب منها طفلاً ذكراً سنة 1169م.

هكذا كان المجتمع البيزنطي مجتمعاً ذكورياً، يُفَضِّـلُ إنجاب الذكور دون الإناث، وها هو شـاعر القرن الثاني عشـر "ثيودور بردوروموس Theodore Prodromos" يُعَبِّرُ عن ذلك بقصـيدةٍ تمتدح العائلات التي تنجب ذكراً، والحزن والأســـى لمن تنجب أنثى، ولم يكن ذلك الأمر في المجتمع البيزنطي وحده، ففي الغرب الأوربي كان على الزوجة كواجبٍ نحو زوجها أن تنجبَ له ولداً ذكراً على الأقل، وإن لم يحالفها الحظ كان يحق لزوجها أن يطلب من الأسقف فسخ عقد الزواج.

ثالثاً : الأم ودورها في مرحلة الطفولة :

إن تحديد عمر الطفولة هو إشكالية، فلم يحتفظ البيزنطيون بسجلاتٍ دقيقةٍ للعمر، وبالتالي لا توجد أدلة تقدم تفاصـيل عن العمر الرقمي ومراحل دورة الحياة، وبالتالي فسيكون من التضـليل وضـع حدودٍ صـارمة تحدد بداية الطفولة ونهايتها، ومع ذلك فهناك اتجاهٌ إلى أن مرحلة الطفولة تبدأ مباشـــرةً بعد انتهاء فترة الفطام، وتبدأ من سـن الخامسـة وحتى البلوغ في سـن الرابعة عشـر عند الذكور، ومن سـن السـادسـة وحتى البلوغ في سـن الثانية عشـر لدى الإناث، وتَعُجُّ المصـادر البيزنطية بالكثير من المشـاهد المختلفة التي يمكن من خلالها رسم صورة للأم البيزنطية وأطفالها.

غير أنـه يمكن الوقوف عند بعض المشـــاهد البيزنطيـة المحدودة، فهـا هو ثيوفيلاكت الأوكريـدي Theophylact of Ochrid (1055 – 1107م) يشير إلى أن ميزة الأم ليس فقط في إنجاب الأطفال، وإنما أيضـاً في نسـجهم داخل نسـيج المجتمع، ناصـحاً بضـرورة مراقبة سـلوك الأطفال، والعمل على تنمية عقولهم وتدريبهم على ضبط النفس.

ولأن الأم هي العنصـــر الأول في البيئة الأولى التي تحيط بالطفل وتؤثر في ســـلوكه، فكانت تعتني بصغارها، وتقص عليهم القصص المختلفة، وكان الطفل البيزنطي موضع كل الحنان، وعلى الرغم من ذلك فقد اسـتخدمت العقوبات الجسـمانية لتهذيب الصـغار، كما امتد الاهتمام بتعليم الأطفال إلى مراقبة المخالطين لهم من السفهاء وعديمي التربية.

وقضـت الأمهات أوقاتهن في تربية أطفالهن واللعب معهم بالألعاب المختلفة، والسـماح أيضـاً لأطفالهن اللعب مع أقرانهم خارج المنزل، وإن كان هناك ما يشـــير إلى أن بعض الأطفال كانوا يلاحقون المجانين، حيث يقومون بصفع المجنون وشد ملابسه، ونعته بأقبح الصفات.

وكانت البنات شـــأن البنين يتلقون التعليم في المنزل على يد أمهاتهن، واقتصـــر عندئذٍ على القراءة والكتابة، وإن اختلف الأمر لدى الطبقة العليا من المجتمع الذين كانوا يحصلون على مستوى عالٍ من الثقافة.

ومن أجل حماية الطفل وَرِثَت الأمهات البيزنطيات العادات القديمة الموروثة التي كانت منتشـــرة في المجتمع، حيث لجأت إلى الأحجبة والتعاويذ والخيوط الحمراء والأجراس يعلقونها بالأطفال، فضـــلاً عن تلويث وجه الطفل بالطين لحفظه من العين الشريرة والحسد، وكثيراً من هذه الأمور قوبلت بالاستهجان من القديس يوحنا ذهبي الفم الذي نصح هؤلاء الأمهات في إحدى عظاته: "لا يجب أن تضعوا شيئاً ليلتف حول جسم الطفل إلا الصليب كي يحميه".

هذا وقد عانت الأمهات في بيزنطة من مشكلة وُجِدَت في المجتمع البيزنطي، وأشارت إليها المصادر البيزنطية، وهي مشكلة الشذوذ الجنسي Pederasty (بين رجلٌ بالغٌ وصبي) أو مشكلة 'مشتهي الأطفال' كما أُطلق عليها، حيث كانت الأمهات يبدين قلقاً وخوفاً على أطفالهن، حيث كان هؤلاء الشـواذ يستدرجون الطفل بالحلوى والمكســرات بعيداً عن المنزل، ومن ثَمَّ يقومون بالاعتداء عليه ، وعلى الرغم من وجود العقوبات المختلفة في القانون البيزنطي التي تُجرم هذا الفعل، مثل النفي والغرامات المالية والعقوبات الجسدية التي قد يصل بعضها إلى الإعدام ، إلا أنها لم تنقطع عن المجتمع.

كما أصاب الأُمّ البيزنطية الوجع لوجود مفهوم بيع الأطفال، إذا كان الأب في حالة فقر وعوز يضطره لبيع أطفاله، فقد أجاز القانون البيزنطي بيع الأطفال، واستخدامهم كعبيد.

كما لم يغادر الألم والأسى الأُمّ البيزنطية لانتشار ظاهرة موت الأطفال المبكر، بسبب انتشار الأمراض والأوبئة، وإن كان ذلك أقل بين العائلات الغنية بسـبب إمكانياتهم في الحصـول على قدرٍ أكبر من الرعاية الصحية. وعلى أية حال فلم تَخْلُ العائلات الأرستقراطية من وجود وفيات للأطفال.

ويمكننا معرفة سلوك بعض الأمهات البيزنطيات عند فقد أطفالهن من خلال وصف كاتب سيرة القديسة ماريا الصـغرى، حيث تحدث عن ردة فعلها بعد وفاة طفلها أوريسـتيس Orestes، حيث لم يكن قد تعدى الخامسة من عمره، فيذكر: 'تمزق قلبها وانكسر، إلا أنها لم تفعل ما اعتادت على فعله الناحبات النادبات، بل حافظت على رباطة جأشـــها، وكبحت جماح طبيعتها الأنثوية، فلم تنتزع شـــعرها، ولا لطمت خديها، ولا مزقت رداءها، ولا نثرت رفات جثة وليدها على رأســـها، ولا تفوهت بكلماتٍ من الكُفر، وإنما انخرطت في بكاءٍ صامت'.

رابعاً : الأم في المنزل وعلاقتها بالأبناء :

لما كان هناك نكران تام للجنس الآخر (المرأة) باعتبارهن مخلوقاتٍ تابعة للرجل في الفكر البيزنطي، فقد كان دور الأم هو الدور الأيديولوجي الأقوى والأبرز للنساء في الإمبراطورية البيزنطية، وأصبح الزواج والمنزل هو وضعهن الطبيعي في المجتمع.

وهناك نصوصاً تؤكد بقاء النساء بشكلٍ عام، وبوصفهن أمهات بشكلٍ خاص في المنزل، ولا يخرجن إلا وقت الأزمات، حيث يشـير المؤرخ "ميخائيل أتالياتس Michael Attalieates" أن النســاء بقين في المنازل، ولم يخرجن إلا وقت حدوث الزلزال سنة 1064م.

كما أشـــارت لائحة دير الإمبراطورة "ثيودورا باليولوجوس Theodora Paliologos" إلى أن النساء بشكلٍ عام اعتدن البقاء في المنزل، ليقمن بمهمتهم السامية (الأمومة).

أما عن علاقة الأم بالأبناء، فهناك ما يفيد في المصـادر البيزنطية أن لها مكانة عظيمة لدى الابن "فهي مربيته وموجهته، وليس هناك قلعة يلوذ بها أقوى منها، فنصـيحتها دائماً مسـموعة، وصـلواتها لابنها تمثل التأييد التام، ودعواتها بمثابة الحراس الذين لا يُقهرون'.

كما سـاهمت الأُمّ البيزنطية في السـلوك الأنثوي المثالي للبنت بغض النظر عن شـيوع هذا السـلوك أو مصـــداقيته على غيرهن من نســـاء المجتمع، فها هو ثيودور رئيس دير ســـتوديوس Theodore of Stoudios يمتدح فيها أمه، لأنها حفظت بناتها بعيداً عن أعين الرجال المُتَفَحصة.

وكذلك المؤرخ ميخائيل بسيللوس Psellos كتب في مرثية ابنته ستيلياني – التي وافتها المنية – عن دور أمها وجدتها في تربيتها، فقد لزمت البيت وقضـت أوقاتها في تدارس الكتب المقدَّسـة، وأن شـخصـيتها اتصـــفت بالحياء والورع والتقوي، وأن وجهها لم تفســـده مســـاحيق التجميل، وكل ذلك ناتجٌ عن التنشـــئة الصارمة.

والمؤرخ ميخائيل بسـيللوس نفسـه قَدَّمَ لنا صـورةً مثاليةً ورائعةً لوالدته، بأنها كانت أماً وزوجةً مثاليةً، اتسـمت بالورع والتقوى والحزم والصـرامة في آنٍ واحدٍ، وكانت شـخصـيتها تتمتع بالقوة والسـيطرة على الأُسرة.

وهناك صـــورةً لأمٍ مثاليةٍ أدارت الأزمات التي مرت بها أســـرتها وأولادها بكل اقتدار وحكمة للحفاظ عليهم من عاقبة الفقر والحاجة، حيث قامت هذه الأم (ثيوســـيبيو) بادخار المال بعيداً عن زوجها، ولم تتردد عن استجداء الخبز من جيرانها بعد أن وصل أولادها إلى مرحلة الموت جوعاً، وشملت أفراد أسرتها بالحب والمودة، حيث حَثَّتهم على التمسك بالصبر والبر.

وهناك نموذجاً آخر للتضـــحية تمثل في أمٍ بيزنطيةٍ تدعى كاليدا Kalida قامت ببيع ما لديها من أملاك لتفتدي ابنها الأسير.

وفي عالَم الديرية والرهبنة الذي كان بديلاً مقبولاً عن الزواج والحياة الأُسَرِيَّة صورة لأمٍ أَجَّلَت دخولها الدير وسلوك الحياة النسكية حيث تُقَدِّمُ لنا سيرة البطريرك نيقفور Nikephoros صورة يودوكيا أم نيقفور التي تعهدت ابنها بالرعاية حتى أتم تعليمه، وبعد أن اطمأنت على مســـتقبله دخلت الدير، وســـلكت طريق الرهبنة.

وبلغ من شـدة تعلق الأبناء بأمهاتهم قيامهم بزيارة أمهاتهم في الأديرة النسـائية، وقضـاء الليل في هذه الأديرة محطمين قواعد الزيارة المتعارف عليها، كما أشار بذلك القديس نيوفيتوس.

وكذلك كانت الأم تقوم بزيارة ابنها الراهب، وقضـــاء اليوم معه في الدير، كما أشـــارت بذلك قواعد المؤسسة الديرية.

خامساً : الأم ومسألة الترمل والتبني :

الأرملة Widow هي المرأة التي مات زوجها، وتســـمى حالة فقدان الزوج حتى الموت ترملاً، وهو مصطلحٌ قديمٌ كان يُكتب على شواهد القبور، ويمكن استخدام مصطلح ترمل لأيٍ من الجنسين، ووفقاً لبعض القواميس فإن كلمة ترمل مُدرَجة صفة لكلا الجنسين.

وعلى الرغم من كثرة عدد النســـاء المتوفيات ووجود أرامل كثيرين من الرجال، إلا أن الترمل في المجتمع البيزنطي ارتبط أكثر بالمرأة، فخسارة الرجل لزوجته عادةً ما تكونُ خسارة عاطفية، ولا تمنعه من العمل واكتســاب قوت يومه، على عكس الزوجة التي تكون بفقد زوجها عرضــةً لتغيير أحوالها الاقتصــادية والاجتماعية والقانونية.

وعلى الرغم من أن كلمة يتيم Orphan من المفترض أن تدل على الطفل الذي فقد كلا والديه، إلا أننا نجدُ أن المجتمع اليوناني والروماني في العصـر البيزنطي كان يعتبر اليتيم عادةً هو الطفل الذي توفي والده، وبالتالي فقد ارتبط الأمر بالأمهات الأرامل بعد وفاة أزواجهن ووالد أطفالهن.

ازداد عدد الأمهات الأرامل في الدولة البيزنطية، وذلك ربما لحرص الأهالي على تزويج بناتهم في سـنٍ مبكرة، وكان ذلك يحدث في معظم الطبقات الاجتماعية حتى أصـبح الزواج المبكر قاعدةً أسـاسـيةً في بيزنطة.

شَكَّلَ فقدان شريك الحياة بسبب الموت صدمة بالغة للزوجة الأم بسبب فقدان دعم الزوج وحمايته، ولما ينتظرها من معاناة رعاية أطفالها، وفَرَضَ القانون على الأرامل فترة حداد امتدت إلى عامٍ كاملٍ تقريباً، كما منحها كأمٍ أرملةٍ امتيازات عديدة منها وأهمها حقها في الوصـاية على أبنائها شريطة ألا تتزوج ثانيةً، والحق في تزويج ابنتها القاصـــر وعقد الخطبة أو فســـخها، ولكنها كانت تفقد هذه الحقوق في حالة ما إذا تزوجت ثانيةً، فعندئذٍ تُلغَى وصـايتها، وتُنقل إلى وَصِـيٍّ قد تم اختياره مسـبقاً من قِبَل الأب عن طريق وصـية، وكان على الأم الأرمل أن تقدم كشف حساب مفصل عن فترة وصايتها.

على أن أمر الزواج الثاني للأم الأرملة لم يكن متروكاً دون قيدٍ أو شـــرطٍ، فعلى الرغم من الســـماح بالزواج الثاني، إلا أن هذا الأمر كان مشـــروطاً بأن تبقى دون زواج لمدةِ عامٍ تقريباً، تجنباً لاختلاط الدماء، واحتراماً لزوجها المتوفى.

وعلى الرغم من ذلك فإن التشـــريعات الإمبراطورية بشـــكلٍ عامٍ كانت تتخوف من الزواج الثاني للأم الأرملة – خاصـةً التي تتمتع بحق الوصـاية - حيث اعتبرت الزواج الثاني خطراً على أولادها، لذا صـدرت بعض التشريعات التي تحظر على الأوصياء بيع أو رهن أي شيء مملوكٌ للوصي.

وتفاخر بيزنطة بالخيرية أو محب البشرية Philanthropia وهي كلمةً ذات مدلولٍ دينيٍ يهدف للحب والعطف الإنسـاني، إذ يُقصـد بها أي نوع من العمل يكون إنسـانياً ومتحضـراً، ويعمل على مسـاعدة الآخرين الذين يعانون من الصعوبات والمحن.

ومن هنا فقد اضـطلع رجال الدين بفكرة الإحسان إلى الفقراء والمعوزين، فقد قَدَّمَ البطريرك تارسيوس Tarsios (784 – 806م) لليتامى والأمهات الأرامل يد المســـاعدة، وقام ببناءِ عددٍ من دور الضـــيافة الكنسية في العاصمة من أجل المحتاجين.

كمـا أنشـــأ الإمبراطور ألكســـيوس كومنين (1081 – 1118م) داراً لرعـايـة الأيتـام Orphantropheion قامت على خدمة المعوقين والمعوذين والمرضـي والفقراء والمحتاجين وشملت تلك الأمهات الأرامل.

وهناك أمهات أرامل تولين رعاية أبنائهن، ومنهم من أصـــبح بطريرك للقســـطنطينية مثل البطريرك أثناسيوس الذي وُلِدَ حوالي سنة 1253م، وتوفي والده وهو طفل، وتولت أمه الأرملة رعايته.

أمّا التبني Adoption في أبسط تعريفاته، فهو الابن الذي يصير فرداً من العائلة وليس من صلبها، وهو أيضاً الطفل الذي ينتقلُ بشكلٍ قانوني من الوالدين البيولوجيين إلى الوالدين بالتبني، وعرفت الدولة البيزنطية التبني، وهناك حالات تبني جرت خاصةً بين الأطفال الأيتام يهم الدراسة منها موقف ودور الأم البيزنطية في هذا الشأن.

بدايةً فإن التبني لا يخلق رابطة الدم، ولكنه يخلق رابطة النسب، فزوجة المتبني لن تكون أماً لابنه الذي تبناه، وكذلك الحال مع أم والده بالتبني فهي ليست جدته.

فإذا كان العقم وعدم إنجاب الأطفال مَثَّلَ عبئاً ثقيلاً على الزوجين، وكان سبباً في عملية التبني، فإن الفقر المدقَع، ووفاة رب الأسرة، وعدم قدرة الأم على الإنفاق على أولادها، كان سبباً في تنازل بعض الفقراء عن رعاية أطفالهم للأغنياء الذين لا ينجبون.

وكان التبني يتمُ وفقاً لعقد اتفاق، ووفق صيغة محددة بين عائلة الطفل الأصلية وعائلته المتبنية له، ويحتوي على بنودٍ تتعلق بضرورات الحياة، وشروط يتم وضعها تجنباً لأي نزاعٍ قد ينشأ على الطفل في المستقبل.

غير أن أهم شرط في العقد قد يكون تعهد الأم والأب الأصليين بعدم نكث العهد والمطالبة بالطفل في المستقبل، بالرغم من أن هذه العقود كانت غالباً بين أسرةٍ غنيةٍ وأسرةٍ فقيرةٍ.

تولت الكنيسة رعاية ومباركة هذه العقود، فقد تَضَمَّنَ إبرام هذه العقود وتقديم رجال الدين النُصح للأم من أجل التوصل إلى أفضل صيغة لإتمام هذا العقد، وأحياناً تقوم الأم بعرض ابنها على الكنيسة من أجل أن تتبناه، كما حدث مع السيدة ديونيسيا Dionysia التي عرضت ابنها على أتوريوس Otoreius رئيس أساقفة ميلتين Meltin وذلك لتبني ابنها بعد وفاة والده، وبالفعل تم التبني حيث تعهده بالرعاية حتى أصبح قارئاً في الكنيسة.

وعلى أية حال فإن البيزنطيين بصفةٍ عامةٍ، والأباطرةَ بصفةٍ خاصةٍ اهتموا بأعمال الخير والإحسان انطلاقاً من روح الإيمان المسيحي وسعياً للخلاص الأبدي، حتى إنهم عملوا على توسيع دائرة نطاق التبني ليشمل كل النساء هؤلاء الذين فقدوا أطفالهن، واللاتي لا يمكن أن يكن لهن أطفال بأي حال من الأحوال، كالأرامل والعذارى وغيرهم من النساء الغير قادرين على الإنجاب، كعزاءٍ لهن ولتحقيق غريزة الأمومة.

سادساً : ملابس الأم البيزنطية :

لا توجد ملابس تخص الأُمّ البيزنطية وحدها، ولكن بوصف دورها المؤثر في المجتمع البيزنطي كان لا بد من معرفة ماذا كانت ترتدي من ثياب، وهل تحدثت المصادر عنها بشكلٍ خاص وخصتها بمعلوماتٍ محددةٍ؟ وما هو دورها في الحياة العامة؟

فقد ظل الثوب البيزنطي مرتبطاً بجذوره اليونانية الكلاسيكية – وإن اختلف نوعاً ما عند الطبقات العليا من المجتمع – لكنه لم يخلُ من لمسة البيئة الهلينية، و على أية حال فإن الملابس في العصور الوسطى بشكلٍ عام كانت باهظة الثمن بالنسبة للفقراء الذين ربما كانوا يرتدون نفس الملابس البالية طوال الوقت

تقريباً، هذا يعني على وجه الخصـوص أن أي زيٍ مملوكٍ لمعظم النسـاء يجبُ أن يكونَ مناسـباً طوال فترة الحمل حتى تصبح أُمَّاً، وحتى بالنسبةِ للميسورين فكانت الملابس تستخدم حتى الموت، ثم يعاد استخدامها.

وكانت ملابس معظم النساء العوام تقريباً عديمة الشكل، تتميز بالتواضع، وتغطي الجسد كاملاً، والتي يجب أيضـــاً أن تكون قادرة على اســـتيعاب الحمل الكامل، كما كانت فتحات الرقبة في الثوب للأم الحامل مزروعة، وهو أمرٌ يصعبُ رؤيته في الرسومات الفنية، ولم يتم وصفه في النصوص، ولكن كان يراعى أن يكون ضرورياً فقط للرضاعة الطبيعية.

اسـتخدمت النســاء البيزنطيات في العصــور الوسـطى المتزوجات وغير المتزوجات، الأمهات وغير الأمهات غطاءً للرأس يغطين به شَـــعْرَهن، كان اســـمه 'مافوريا Maphoria'، كما كن يرتدين الحجاب، ويرى البعض أن ملابس النســاء بشــكلٍ عام خارج المنزل كانت تشــبه ملابس الرجال، فقد ارتدى النســاء والرجال العباءات، وإن كانت عباءات النساء تميزت بأنها تغطي الرأس والأكتاف.

وهناك ما يفيد بانتشــار الحجاب بين النســاء البيزنطيات، خاصــةً الأمهات منهن، فها هي آنا كومينين تذكر أنه حينما وافت المنية أبيها، كان أول تصـــرف لأمها الإمبراطورة إيريني ديو كاينا هو تغيير حجابها الإمبراطوري، واسـتبداله بحجابٍ آخر أسـود اللون، أعطته لها ابنتها يودوكيا Euodokia ، وفي موضـعٍ آخر تؤكد أنّا كومينين على ارتداء أمها الحجاب في رثائها: "لم تكن تلقَى زوجها أبداً وهي سافرة، بل وكأنها في ليلة عرسها".

وعلى الرغم من أن المرأة البيزنطية حرصـــت على تغطية رأســـها خارج المنزل، إلا أن الأمر كان يختلف لدى النســاء في المنزل، اللاتي من المفترض أن جانباً ليس صــغيراً منهن أمهات – خاصــةً نســاء الطبقة الدنيا – فقد تخلين عن ارتدائه لأنه كان يعيق حركاتهن أثناء تأديتهن لأعمالهن المنزلية، لاسيما الأسر الفقيرة التي ليس لديها خادمات.

وعلى أية حال فإن الدارس لتاريخ الملابس يكتشف أن الأخلاق شيءٌ نابعٌ من عمق الشخصية والتربية والطباع، وليس من منظور الملبس.

سابعاً : أمومةٌ دون زواج :

أمومةٌ دون زواج هو مفهومٌ يعني إنجاب أطفال سفاحاً خارج نطاق الزواج المتعارف عليه في بيزنطة، بحيث يقوم أحد الوالدين (غالباً الأم) برعاية الأطفال دون الطرف الآخر، وينتج عنه أيضــاً أمهات عازبات، ووجودهن حاضنات يمثل خطراً اجتماعياً.

أيضـاً قد تحدث الأمومة أحياناً في الحالات التي يكون فيها لدى الأم أكثرَ من حبيب (زاني). فهل عانت بيزنطة اجتماعياً من هذا الأمر؟

كان هناك تخوفاً واضــحاً من المجتمع البيزنطي تجاه تلك المســألة، لكنه ألقى بالمســئولية كاملةً على المرأة، حتى تحول الأمر إلى أيديولوجية معلنة عن المجتمع البيزنطي.

فالقديس نيوفيتوس ST. Neophytos يرى أن 'المرأة هي أداة الشــيطان لِجَر الرَّجُلِ إليه، وعندما يرى رَجُلٌ امرأةً جميلةً ســيقع على الفور في شِــبَاكِ الصــيد، لأن المرأة تصــيد أرواح الرجال، ويجســد

كيكاومينوس Kekaumenos أيديولوجية المجتمع الذكوري في إحدى نصـــائحه لابنه: 'احرص على حصر نساءِ بيتك كالمجرمين في السجون'، وفي موضعٍ آخر: 'كن حذراً إذا ما اضطرتك الظروف بالتواجد مع امرأة، حتى وإن بدت لك خجولة محتشمة، ولا تكن حميماً أو ترفع الكلفة معها، فعندئذٍ لن تستطيع الفرار من شـــراكِها، بل ســـتدور عيناك في محجريهما، ويخفق قلبك بعنفٍ، ولن تنجح في الســـيطرة على جموح نفسك، ولتعلم بأن الشيطانَ قد زودها بثلاث أسلحة: هيئتها الجسدية، وكلماتها المعسولة، والقدرة على إثارة الغريزة'.

وكان البغاء مباحاً في الدولة البيزنطية، لذا حرصـت الأُسـر البيزنطية بشـكلٍ كبير على أن تحافظ على بناتها عفيفات طاهرات، بمنأى عن أي اختلاط قبل الزواج، كما أن الرَّجُل البيزنطي كان يتطلع أن تكون عروســه عذراء لم يمســســها أحدٌ غيره قبل اقترانه بها، كل ذلك لتكوين أُســرة وأُمّ لأبنائه من خلال زواجٍ شرعي.

وكان القديس أثناسيوس Athanasios قد أدان الاتصال الجنسي بين المخطوبين قبل الزواج، وفَرَضَ كَفَّارةً على الآباء الذين سمحوا لبناتهم بمعاشرة الخطيب قبل الزواج.

وكان لملابسـات وظروف العلاقة بين الزوجين الوالدين للطفل وقت الحمل ضـرورة للغاية، لأنها تُحدد شــرعية الأطفال وانتســابهم لوالدهم من عدمه، فقد كان حدوث الحمل في إطار الزواج هو الشــيء المثالي ليصبح الطفل شرعياً، كما حرصت الدولة والكنيسة في بيزنطة على أن يظل مشروع الزواج تحت رقابتها الذي هو بالأســـاس حفاظاً على الأم التي هي في الحقيقة تمثل العمود الفقري في الزواج الذي هو أصـــل الروابط المختلفة التي تجمع بين العائلات، حتى أن البطريرك سيسينيوس Sisinnios سنة 997م مَيَّزَ بين الزواج الشــرعي والمُحَرَّم بالقول: 'ولآنه من المقزز أن تزرعَ الحشــائش الضــارة وســط القمح، فقد مَيَّزْتُ بوضوحٍ تامٍ بين الزواج الشرعي والمُحَرَّم'.

ولم يَفُت القانون البيزنطي حالات الأمومة بلا زواج، فقد فَرَضَ عقوبة على الأرملة التي لا تلتزم بفترة الحداد لمدة عام من وفاة الزوج ووضعت طفلاً سفاحاً.

كما وُجِدَت الأمهات ذات الأطفال غير الشــرعيين في البلاط الإمبراطوري، وربما أســلوب الحياة هو السبب في انتشار الفساد والسلوك الشاذ المنافي للمجتمع.

فقد رَوَى كاتب ســـيرة ليونتيوس Leontios بطريرك بيت المقدس عن رهبان ارتكبوا واقعة الزنا، ورهبانٌ يعيشون داخل الأديرة برفقة نساءٍ أنجبوا منهن أطفالاً.

كما ذَكَرَ المؤرّخ بروكوبيوس أن ثيودورا وضـــعت طفلين دون زواج وهي ما زالت صـــغيرة الســـن، وقامت بالعديد من حالات الإجهاض، مما أَثَّر عليها لاحقاً، وأصـــيبت بالعقم، ولم تســـتطع أن تنجبَ بعد زواجها من الإمبراطور جستنيان (527 – 565م).

ثامناً : الأُمّ وأثرها على الوضـــع الديمجرافي في الدولة البيزنطية (العقم – الإجهاض – وسائل منع الحمل – الأمومة والرهبنة) :

الديمجرافيا Dimography هي عِلم السكان والكثافة السكانية، وهي أيضـاً الإحصـائات التي تشـمل المواليد والوفيات وغيرها مما يساهم في توضيح التغيرات البشرية.

وكانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني من الضـــعف التكاثري للســكان الذي وَلَّدَ الضـــعف الديمجرافي نتيجة ارتفاع معدل الوفيات. فهل كانت المرأة البيزنطية مسئولةً عن هذا الضعف؟

شَـغَلَ المظهر التكاثري الإمبراطورية البيزنطية بشكلٍ واضـحٍ، وهناك مؤشـراتٌ كثيرةٌ تدل على ذلك، منها تشـجيع وصـناعة القوانين المدنية التي تحض على زواج الفتيات في أعمارٍ صـغيرةٍ تسـمح بذلك، وذلك لإتاحة فرص مرات الحمل وإنجاب الكثير من الأطفال، كما أن هناك الكثير من النصـــوص التي تؤكد على المظهر التكاثري كهدفٍ رئيسـيٍ من الزواج، بل إن الإمبراطور جستنيان الأول اعتبر أن الزواج الذي يمنع التكاثر زواجٌ غير سعيدٍ، وينبغي فسخه.

هذا الأمر يدفعنا إلى البحث في معدل الخصـــوبة Fertilty وهي القدرة على إنتاج نســـل من خلال التكاثر بعد بداية النضـــج الجنســـي، وتحديداً هو متوســـط عدد الأطفال الذين تولدهم أنثى خلال حياتها ويتم قياسه ديموجرافياً، الأمر الذي يدفعنا أيضـاً إلى دراسـة عوامل أخرى لتحديد المسئولية مثل العقم والإجهاض وغيرها من هذه العوامل.

- **العقم:**

العقم Infertility عند البشـــر هو عدم القدرة على الحَمل بعد عامٍ واحدٍ من الجماع المنتظم وغير المحمي بين الشريكين من الذكور والإناث.

ولم يكن العقم قاصـراً يوماً ما على جنسٍ بعينه دون الآخر، فقد كان يشـمل جنس الإناث والذكور، وإن كان علماء الديمجرافيا في تعريفهم للعقم قالوا إنه "عدم الإنجاب لدى مجموعة من النساء في سن الإنجاب"، مما يجعل العقم أكثر ارتباطاً بالإناث دون الذكور.

وتشـــير المصـــادر التاريخية إلى أن العقم وعدم إنجاب الأطفال مَثَّلَ عبئاً ثقيلاً على كلا الزوجين في بيزنطـة، وإن كـانـت المصـــادر ركزت أكثر على المرأة، وعـاب المجتمعُ على المرأة العـاقر، حيث كـانـت عرضـــةً للســـخرية لأنها لم تؤدِ أهم دورٍ لها وهو إنجاب الأطفال، فها هي ســـيدة تدعى جليكيريا تكتب في وصيتها بأنها أرملة لم تنجب أطفالاً بعد وفاة زوجها،

وفي سـيرة القديسـة توماييس الليسـبوسـية St. thomais of Lesbos صـورة لزوجين هما والدا القديسة أصيبا بالعقم في بواكير زواجهما.

ومن يرصد القصص التي وردت عن عدد الأزواج المحرومين من الإنجاب الذين يلجئون إلى القديسين والقديســات والأضــرحة ورجال الدين والأطباء والســحر والسَّــحَرَة، يدرك حجم مشــكلة العقم في الدولة البيزنطية.

وهناك دراسـة بعنوان (العقم عند الذكور – اضـطرابات الحيوانات المنوية والخلل الوظيفي في العصـر البيزنطي (330 – 1453م) تؤكد أن العقم لم يكن قاصـــراً على الإناث، وأنه كان لدى الذكور بشـــكلٍ ملحوظ، وأرجعت ذلك للسلوك الجنسي لدى البيزنطيين.

وكان العقمُ من أكثر المآسي التي يمكن أن تهدد المرأة، حيث اعتبرته قَدَرَاً أكثرَ مرارةً من الموت، حتى إن القديس بلازيوس St. Blasius اعتبره شـرٌ محتومٌ، خاصـةً على الأسـر الأرسـتقراطية، ويُذكَر أن أحدَ النبلاء توسل إليه ليدعو له كي تُنجبَ زوجته.

وهناك قصصٌ كثيرةٌ شُفِيَت من العقم على يد القديسين ومعجزاتهم، غير أن المجتمع كان أحياناً يتشكك في هذه الحالات التي تُشفَى بمساعدتهم، وأشهرها قصة زوجة رجلٌ عقيمٌ، لجأت إلى القديس دنيال الناسك The Hermit Danial، ورغبةً في الأمومة دعا لها القديس، فأصبحت حاملاً، غير أن الشائعات طالت القديس بأنه هو الأب الحقيقي لهذا الطفل، وفي روايةٍ أخرى لهذه القصة قيل إن القديس أمسك بالطفل بعد ولادته وكان عمره اثنان وعشرون يوماً فقط في احتفالية أقامها الأب احتفالاً بقدوم ابنه. وسأله من هو والدك؟ فأشار الطفل بأصبعه تجاه الزوج مبرئاً ساحة القديس.

وبعيداً عن صحة القصة أو عدم صحتها، فإنها على أية حالٍ تؤكد على مدى الضرر الذي يلحق بالمرأة التي تصاب بالعقم، والذي يهدد حياتها الزوجية ويعطل وظيفتها البيولوجية.

وقد تُحرَمُ المرأة من الأمومة بسبب العجز الجنسي، فقد صدر تشريعٌ في عام (528م) نَصَّ على أنه في حالة استمرار عجز الزوج جنسياً لمدة عامين من تاريخ الزواج، يَحِقُّ للزوجة اللجوء إلى المحكمة، والسير في مسألة الطلاق.

وعلى أية حال فعلى الرغم من مشكلة العقم هذه، فإن هناك ما يفيد بأن معدل الخصوبة لدى الأم البيزنطية كان مرتفعاً، فعلى سبيل المثال وليس الحصر أنجبت إيرين زوجة الإمبراطوار الكسيوس كومينين (1081 – 1118م) تسعة أطفال، وأنادالسينا أنجبت ثمانية أطفال.

- **<u>الإجهاض :</u>**

الإجهاض Abortion في أبسط تعريفاته هو إنهاء الحمل عن طريق إزالة أو طرد الجنين، والإجهاض نوعان: الأول الذي يحدث بدون تدخل وهو الإجهاض التلقائي، والثاني الذي يتم فيه اتخاذ خطوات متعمَّدَة لإنهاء الحمل. فهل كانت الأم البيزنطية مسئولة عن فكرة الإجهاض بشكلٍ عام؟ وهل كانت تتعلق بصحة الأم؟ أم كان الإجهاض متعلقاً بعدم القدرة على تحمل نفقات الطفل؟ وهل كان الإجهاض ناتجاً عن اغتصاب لانتشار الزنا والفحشاء والدعارة؟ ... هل كان الإجهاض بسبب المتورطين في مسائل الميراث؟ أم أن أسبابه كانت تُمليه الضرورة الطِبِّيَّة؟

ويتساءل البعض أيضاً هل كان الإجهاض في العصر البيزنطي وسيلة لتحديد النسل؟ علماً بأن الإمبراطورية لم تواجه مشاكل الاكتظاظ السكاني، والدلائلُ تشير إلى أن مفهوم الإجهاض كان أحد التدابير المستخدمة في تحديد النسل، والتي كان لها تأثيرٌ على مستويات السكان في العصور القديمة.

وقد عُرِفَت ممارسة الإجهاض منذ العصور القديمة، وعَرِفَت بيزنطة الإجهاض التلقائي، والإجهاض المحرض (الإنهاء المُتَعَمَّد للحمل)، وتم فيه استخدام طُرقاً مختلفة، فغير الجراحة كانت تعتمد فيه على الأنشطة البدنية، مثل الأعمال الشاقة، وشد البطن والضغط عليها، وصَبُّ الماء الساخن، وغيرها من الطُرق المستُخدَمة، واستخدام الأعشاب المختلفة التي تسبب موت الجنين، أما الجراحة فقد استُخدِمَت بعض الأدوات الجراحية، لكنها كانت خطرة، وبعضها أودَى بحياة الأمهات.

وبعيداً عن أساليب وطُرق الإجهاض، أو تلك التي تُحدِثها الأدوية والأعشاب المجهضة، فلم يخلُ المجتمع البيزنطي من الأسباب المُحَرّضة على عمليات الإجهاض، كالوقوع في خطيئة الزنا، والعلاقات المُجرَّمة، وعمليات الدعارة، بل إن هناك ما يشير إلى أن بعض الأمهات سَعَيْنَ إلى الإجهاض انتقاماً من أزواجهن، والبعض الآخر لجأن إليه من أجل الحفاظ على جَمَالِهن وشبابِهن، والبعض الآخر من أجل تخفيض عدد الأبناء داخل الأُسرة وتحديد النسل.

ولما كان الإجهاضُ فعل متكرر جداً في الإمبراطورية البيزنطية، فلم تقف الدولة مكتوفة الأيدي، ولم يسمح القانون البيزنطي إلا بالإجهاض العلاجي، وما عدا ذلك اعتبره جريمة قتل، وكانت بيزنطة في هذا الأمر متأثرةً بروح المسيحية، وكانت هناك عقوبات للإجهاض كالنفي المؤقت ومصادرة الممتلكات، والعمل الجبري في المناجم، وفي بعض الحالات كانت عقوبته الموت، وهناك عقوباتٌ جرت أيضاً على القابلات والأطباء، أو الأشخاص الذين يساعدون في مثل هذه العمليات، وشملت أيضاً مُصَنِّعي أدوية الإجهاض، الذين طالتهم عقوبة الحرمان الكنسي.

وربما للحفاظ على الوضع الديمجرافي للإمبراطورية البيزنطية، حَرِصَ آباء الكنيسة على قبول توبة النساء اللاتي يلجأن للإجهاض، وإن كانوا اشترطوا أن يتم هذا بصورةٍ علنيةٍ أمام الناس حتى يَكُنَّ عِبرةً لغيرهن.

- **<u>وسائل منع الحمل :</u>**

هل لجأت الأم البيزنطية إلى استخدام وسائل منع الحمل (Contraceptive (Birth Control المُتعارَف عليها في هذا العصر؟ وهل أَثَّرَ ذلك على عدد المواليد؟

الحق إن مسألة تحديد معدل المواليد منذ العصور القديمة تصطدم بالعديد من المشكلات، بمعنى أن غالبية المؤلفين القدامى عند مناقشة هذه المسألة عَبَّروا عن أنفسهم بطريقةٍ غير واضحةٍ للغاية، فلم يميزوا بين موانع الحمل والمُجهِضَة، وفي بعض الأحيان قاموا بتبادلها بشكلٍ متبادل.

فيشير تاريخ تحديد النسل المعروف أيضاً باسم منع الحمل وتحديد الخصوبة إلى الأساليب أو الأجهزة التي تم استخدامها لمنع الحمل، وكان الكاتب الطبي سورانوس Soranus (98 – 138م) قد ترك عدة طُرُقٍ موثوقةٍ لتحديد النسل، اتخذ فيها نهجاً عقلانياً، حيث رفض استخدام الخرافات والتمائم، وبدلاً من ذلك وَصَفَ طُرُقاً منطقيةً لمنع الحمل.

وعلى الرغم من أن سورانوس وَصَفَ العديد من المُرَكَّبات المُسَبِبة للإجهاض، وكان يفصل بين التي تمنع الحمل، وتلك التي تُحرض على الإجهاض، إلا أن بعضها لم تكن فعَّالة.

وإلى جانب الوسائل القديمة المُستَخدَمة لمنع الحمل في بيزنطة، فقد ساهم أيضاً كلٌ من أورباسيوس البرغاموس Orbasius of Bergamum وأثيوس الأميدي Aetus of Amida في هذا الشأن.

واستخدمت الأم البيزنطية أحياناً وسائل منع الحمل لتقييد وتقليل عدد أفراد الأسرة، على الرغم من خطورتها، فقد كان بعضها يسبب العقم، كما حدث مع الإمبراطورة ثيودورا (527 – 548م).

وعلى أية حال فقد كانت الكنيسة بصفةٍ خاصةٍ والمجتمع بصفةٍ عامةٍ يحبذون كثرة النسل وإنجاب العديد من الأطفال، لضروراتٍ كثيرة أهمها الحروب التي تخوضها الإمبراطورية البيزنطية.

- **<u>الأمومة والرهبنة :</u>**

ظاهرةٌ جديدةٌ ساهمت في الحَدِّ من الزواج وإنجاب الأطفال، وأَثَّرَت على الوضع الديموجرافي للإمبراطورية البيزنطية، هذه المرة ليس عن طريق الإجهاض أو منع الحمل، بل اختيار الزهد والرهبنة التي ظهرت مع بداية القرن الرابع الميلادي وانتشار المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، والرهبنة تعني

"الزهد والتنسك أو الانعزال والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار الفقر طوعاً، كما تعني تطهير الروح واحتقار الجسد والإعراض عن شهواته".

كانت الرهبنة تتطلب التضحية بالزوج والوالدين والأبناء والأشقاء، وقطع كل العلاقات الأسرية، والتنازل عن الأملاك لصالح المؤسسة الديرية، إذ كان يُنظَر إلى مثل هذه الارتباطات أنها تلهي الشخص عن ممارسة حياته التي كَرَّسَها للمسيح.

وإذا كانت الحياة الديرية مَثَّلَت خياراً لبعض النساء كملجأٍ وملاذٍ لهن، فإنها كانت لأخريات – خاصةً الطبقة الإمبراطورية – بمثابة سجن، وتضحيةً بالأمومة، وكثيراً ما نطالع كتاب الحوليات يدينون قسوة الأباطرة الذين يجبرون أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم الغير مرغوب فيهن على دخول الدير، فعلى سبيل المثال ممن زُجَّ بهم في الدير شقيقات رومانوس الثاني Romanes II (959 – 963م)، ونيقفور بوتانياتس Nicephores Botaneiates الذي وُصِفَ بأنه بلا قلب لإجبار أمه على دخول الدير، والكثير من الحالات الأخرى.

ذكرت المصادر البيزنطية صوراً للصراع بين الرغبة في الأمومة، والرغبة في التبتل باعتباره الطريق الأمثل للقداسة داخل المجتمع البيزنطي، مثل قصة الفتاة هيباشيا التي قررت دخول الدير، لكنها وجدت معارضة من قِبل أمها التي رأت تزويجها لاستمرار نسل الأسرة من خلالها، ونساء القديس بوثيميوس الأصغر الذين قررن اللحاق به في الحياة الديرية، أبقين على ابنتهن أناستاسو Anastaso لكي تتزوج وتصبح أماً لذرية امتداداً لأسرتهن.

وصورةٌ أخرى لأمٍ تُكرّس ابنتها التي كانت تدعى ثيوبيستي Theopiste لخدمة الرب، حيث أدخلاها الدير كنوعٍ من الشكر والعرفان لبقائها على قيد الحياة بعد وفاة اثنان من أشقائها.

تاسعاً : أُمُّ المسيح Christokos وأُمُّ الإله Theotokes :

أُمُّ المسيح Chritotokos هو لقبٌ يوناني للسيدة مريم والدة يسوع، استخدم تاريخياً في كنائس الشرق غير النسطورية، أَمَّا ثيوطوكس Theotokos أُمّ الإله أو أُمّ الرب فهو مصطلحٌ لاهوتي عبارة عن لقب السيدة العذراء، وقد استخدم في الكتابة اللاهوتية الأرثوذكسية والكاثولوكية التقليدية وفي الترنيمة والأيقونات.

وعلى الرغم من أن المصطلح كان يُستخدم منذ بداية القرن الثالث الميلادي في كتابات أثناسيوس السكندري (300م) وغريغوريوس اللاهوتي (370م)، ويوحنا ذهبي الفم (400م)، إلا أنه غالباً ما يُستشهد بأوريجانوس (254م) باعتباره أول من استخدم هذا المصطلح، وإن كان ليس هناك ما يؤكد ذلك.

وكان أول من اعترض على هذه التسمية هو نسطور (428 – 431م) بطريرك القسطنطينية، حيث ذكر أن المسيح طبيعتان وشخصان: إله وإنسان. وقال: إن العذراء مريم بوصفها إنسانة وَلدت الطبيعة الإنسانية، فهي تدعَى أُمّ يسوع أو أُمّ المسيح، وليست أُمّ الله أو والدة الإله، لأن مصطلح 'والدة الله' يوحي بشكلٍ غير ملائم بأن الربوبية أصلها في مريم، مما يضفي على مريم الدور "إلهة أُمّ".

عَقد المَجَمَع المسكوني الثالث في إفسس Ephesus سنة 431م، وتم التأكيد رسمياً على استخدام مصطلح 'والدة الإله'، وأعلن أن مريم أصبحت حقاً أُمّ الإله'، وكان ذلك بحضور مئتان من أساقفة العالَم بإقرار عظمة العذراء، ووضع مقدمة قانون الإيمان، ولجأ الناس في طلب حماية مريم كأُمٍّ، واعتمدوا على شفاعتها بصفتها شفيعاً مع ابنها.

صار مصطلح Theotokos – الذي يعني والدة الإله – متداولاً بشكلٍ ملحوظٍ في كافة مظاهر الحياة اليومية، وراحت الكنيسة تستثمر ذلك مشجعةً على التكريس لها، والتفاني في عبادتها في الأعياد الخاصة بها، وصاغ رجال الدين ترانيماً في تبجيلها تمتدح مواقفها البطولية في أمورٍ كثيرةٍ، مثل حماية العاصمةِ وأهلِها وكنيستِها، كما رَوَّجَت الكنيسة بين الناس قدرة العذراء على فتح أبواب الجنة.

وتزايد الاعتقاد الشعبي في أيقونة والدة الإله وقدرتها على الحماية والنُصرة، وانتشرت صورتها المقدسة، حيث عُلِّقَت بالدور والحوانيت، وطُرِّزت على الملابس ونُحتت في صورة مجسماتٍ، ووُضعَت في الميادين العامة، كما أقام لها الأباطرة مواكب التكريم في العاصمة، مثل الإمبراطورة ثيودورا ، والإمبراطور يوحنا الثاني كومينين (1118 – 1143م) الذان أقاما موكباً تكريماً لأيقونة والدة الإله، كما كان لها أيقونة شهيرة أُطلق عليها بلاشيرنتسيا Blachernitissa أي أيقونة والدة الإله.

وفيما يخص الأُمّ، فيُشار إلى زوجة الإمبراطور ليو السادس (868 – 912م) أنها قامت بتطويق بطنها وأجزاء من جسدها بخيوطٍ من صورةِ السيدة العذراء "أُمّ الإله" من أجل حمل طفلٍ في أحشائها، تلك هي "والدة الإله" أو "أُمّ الإله" التي آمن بها البيزنطيون.

الخاتمة :

في مجتمعٍ ذكوريٍ – كالمجتمعِ البيزنطي – لا بد أن يكونَ تاريخ المرأة، وبالتبعية تاريخ الأم تحديداً مدلهماً بالمسكوتات، ومتشحاً أحياناً بالتشويه والإفك والاختلاف، وربما ضَنَّت علينا المصادر البيزنطية بالدور الكبير الذي لعبته الأُمّ لكونها علامة استفهامٍ أكثر من كونها موضوعاً، وقد يُعَدُّ ذلك أمراً غائباً نتيجة بداهة التسليم بحضورها الحميم.

ولأن المؤنثَ عنصرٌ مغلوبٌ على أمره في المجتمع البيزنطي بسبب طغيان النزعة الانفرادية لدى المذكر، ولا سبيل لقلب ذلك الطغيان إلى نقيضه، فقد كرهت الأُمُّ البيزنطية إنجاب أنثى، لقد فشلت في أن تفرض على الذكر الاعتراف بأهمية الأنثى الذي هو بالنسبةِ له رضوخٌ، لأنه ينقله من الاستبداد إلى الاستناد، ومن الاستعلاء إلى الاستواء.

وهكذا كانت المرأة في العُرْفِ البيزنطي آلةً للإنجاب، وهي كائنٌ بخسٌ مغموراً بالشر - وإنجابها المستمر طالما هي قادرة على الإنجاب – وسيلة تجعلها أقل شر ونجاسة، وبذلك تكتسب أهميتها وقداستها من كونها أُمّاً، أما إذا افتقرت الأمومة، فتسقطَ عنها الحصانة، وتغدوا شراً كلها.

ولكل إنسانٍ أُمّاً واحدة فقط، بينما قد يكون له أكثر من أَبّ - في جانبٍ من جوانب المجتمع البيزنطي - وصرخة الطفل خروجاً من الرحم هي شق الوجود نحو الحياة، ومن هنا فقد أدركت الأُمُّ البيزنطية أن طفلها البيزنطي تحديداً "خَرَجَ من رحمٍ بيولوجي" إلى "رحمٍ إمبراطوري"، فعملت أن يكونَ طفلها نموذجاً يتبلور العالَم من حولِه، فهو ينتمي إلى إمبراطوريةٍ تمتد شرقاً وغرباً، وشَمالاً وجنوباً.

تطلبت الأمومة من المرأة البيزنطية النظر في نفس اللحظة إلى اتجاهين مختلفين: اتجاه الماضي عندما كانت ابنة لأُمّ، واتجاه المستقبل عندما أصبحت أُمّاً لطفل. ومن هنا فقد ترفعت على الصراع من أجل البقاء، بل الصراع لديها كان مسخراً من أجل الفداء.

وعلى الرغم من أن الأُمَّ البيزنطية كانت في المجتمع البيزنطي إلهاً ووطناً ووجوداً، إلا أن الأمومة في ظِلِّ المجتمع الذكوري كانت التمرين التطبيعي الأشَدّ فاعلية، وتأثيراً في تطويع النساء الأمهات، واستدراجهن إلى قفص الطاعة صاغرات، قانعات، وربما قانطات.

ملاحق البحث

شكل (1): الأم – القابلة – الولادة

شكل (2): الأم المرضعة

قضايا العميان في المجتمع

مقدمة :

يمثل تاريخ العميان أصعب سجل يظهر فيه عجز الإنسان عن معرفته نفسه وهو تاريخ مظلم للغاية ، فإن التاريخ يحدثنا عن المعاملة التى كان يلقاها العميان من ذويهم فى المجتمعات الأولى وهى أنواع متباينة تختلف باختلاف الأبعاد والمثل الأخلاقية التى كانت تلتزم باتباعها تلك المجتمعات ، كان يعتبر الأعمى تجسيداً للعنة الآلهة ، حيث كان فقد البصر يعتبر افتقاراً من الآلهة للإنسان ومحاولة علاجه كان ينظر إليه على أنه تدخل فى إرادة الآلهة ويستدعى غضبها وثورتها ، ولذلك كان العميان يلقون من تلك المجتمعات ألواناً من الاضطهاد والإذلال قد تصل إلى حد القتل وبعض المجتمعات كانت تعتبر العميان أعضاء يضعفون من قوتها فيتخلصون منهم بطرق مختلفة ، حيث كان مبدأ تلك المجتمعات هو ضرورة الاستغناء عن كل عضو ضعيف فى المجتمع . [1]

وفى التراث اليهودى يجد القارئ هذه العبارة مراراً (أن الكفيف كالميت) ويأمر التلمود أن من يمر بكفيف فعليه أن يشفق عليه كما يترحم على ميت قريب له . [2]

وورد فى الكتابات القديمة الخاصة بأفلاطون فى الجمهورية وأرسطو فى المدينة الفاضلة بضرورة التخلص من العميان بالإعدام ، كما جاء أيضاً فى قوانين ليكورجوس Lucurgus الأسبراطى وسولون Solon الأثينى ، وفى روما ظل الناس فترة طويلة يغرقون العميان فى نهر التيبر حتى جاء رومولوس Romulus فحد من هذا التصرف إذ طلب تشكيل جمعيات أهلية للبت فى صلاحية الطفل للمواطنة من عدمه . [3]

ومشاكل العميان لم تكن مثار اهتمام الناس فى المجتمعات القديمة والوسطى ، أو أنها كانت أزمة من نوع خاص لجأت لحلها بطرق تتلاءم مع المثل الأخلاقية التى كانت تلتزم بها تلك المجتمعات ، وليس فى وسع التاريخ أن يحدد متى بدأت هذه المشكلات ، إذ أنها أقدم من بداية التاريخ نفسه الذى نعرفه ونستمد منه أخبار المجتمعات والأمم والشعوب .

ففى بعض المجتمعات كانت معاملة العميان تتسم بطابع إنسانى وإن كانت تكتفى بتقديم العون المحدود ليستمر الأعمى فى حياته دون أن يبذل أى مجهود فى سبيل تدريبه أو تعليمه بعض الأعمال ، كان العميان فى الصين قديماً يُدربون على حفظ الحوادث التاريخية وسردها حتى يُصبحوا حفظة للتاريخ وروايته وتلاميذهم كانوا من العميان أيضاً الذين يحفظون عنهم ويقومون بأداء مهمة روايته للأجيال القادمة ثم بتعليمه بدورهم للعميان الصغار . [4]

ويحسن بنا قبل الخوض فى تاريخ العميان فى الدولة البيزنطية أن نحدد مفهوم الأعمى فى اللغة العربية ، حيث إن هناك ألفاظاً كثيرة وجدناها فى بطون المعاجم العربية تستخدم للتعريف بالشخص الذى فقد بصره هذه الألفاظ أولها الأعمى والأعمه والضرير الأكمة – العاجز المكفوف والكفيف والمعاق ، فالأعمى من ذهب بصره من أصل مادتها وهى العماء . والعماء هو الضلالة أو كلمة الأعمه من العمه والعمه كما فى لسان العرب التحيز والتردد ويقال أرض عمهاء أى بلا إمارات أو علامات . وغالباً ما ترد كلمة عمه

ومشتقاتها فى معرض الذم ، أما كلمة " ضرير " فهى مأخوذة من " الضر " هو سوء الحال لنقص فى بدنه ، وكلمة عاجز فهى العجز أى التأخر عن شئ ، وصارت صفة لمن يقصر عن فعل الشئ ، أما كلمة الأكمة فمأخوذة من الكمة ، والشخص الأكمه هو الذى يولد أعمى مطموس العين أما كلمة كفيف أو مكفوف فأصلها من الكف ومعناها المنع والكفيف أيضاً هو فاقد البصر وجمعها المكافيف . [5]

غير أن أدق لفظ أطلق على فاقد البصر فى العصور الوسطى هو لفظ الأعمى وذلك لأنه كان أكثر شيوعاً .

أما عن سمل الأعين فقد عرف فقأ أو قلع العيون بالسمل وأصل الكلمة العبرية يعنى الثوب ، وفى اللغة العربية يعنى أيضاً الثوب الخرق أو البالى أو الماء القليل الباقى فى أسفل الإناء ، أى الثمالة ، وربما المعنى الثانى يفسر استخدام السمل بمعنى فقأ العين أى إخراج سملتها . [6]

والعجيب أن هناك بعض الروايات اليهودية تؤصل للفعل (سمل) بالرجوع إلى أحد الملائكة الذى يطلق عليه سمائيل [7]

أما الإعاقة بمفهومها العام هى فقد إحدى القدرات الجسمية أو الحسية أو الذهنية نتيجة مرض أو حادث أو عامل وراثى أو عيب خلقى أو خطأ طبى أو عقاب لصاحبها ، كما سنرى ذلك فى تاريخ الدولة البيزنطية . وتعد الإعاقة البصرية إحدى الإعاقات المؤلمة فمن الناحية الفسيولوجية بلغة الطب هى الحالة التى يفقد فيها الكائن الحى القدرة على الرؤية بالجهاز المخصص لهذا الغرض وهو العين وهذا الجهاز يعجز عن أداء وظيفته إذا أصابه خلل سواء كان طبياً أو حادثاً أو ولادياً . [8]

العميان فى الدولة البيزنطية :

انتشرت ظاهرة العمى فى الدولة البيزنطية مثلها مثل أى ظاهرة فى عالم العصور الوسطى فالكرات والعصى والأحجار والسكاكين والأسياخ وما إلى ذلك من الأدوات المختلفة التى كان يلعب بها الأطفال والكبار كثيراً ما كانت تؤدى إلى حدوث إصابات بالعيون ، وليس هناك من سبيل لتلافى هذه المآسى باتخاذ الحيطة والحذر . وإن تقدم طب العيون فى الدولة البيزنطية إنما يعكس مدى انتشار هذه الإعاقة . [9]

وتشير كثير من الدراسات إلى اهتمام الدولة البيزنطية بعلاج العين وأمراضها المختلفة ، وهناك ما يفيد بأسماء كثير من أطباء العيون فى الدولة البيزنطية . [10]

كما تشير المعلومات التاريخية أن الدولة البيزنطية اهتمت بالعين اهتماماً واسعاً ، بجمالها وصحتها وعلاجها بل وصل الأمر أن جعلتها إحدى وسائل عقوباتها ، ففى الوقت الذى كانت فيه المرأة البيزنطية تهتم بتزيين يديها وعنقها وشعرها بالحلى المصنوع من الذهب وترش ملابسها بأروع العطور الفاخرة ، لم تكن تنس أن تهتم برسم عينها باللون الأسود . [11]

بل أن العيون ألقت بظلالها على نعت وصفة بعض الأباطرة ، فالإمبراطور ألكسويس الخامس دوكاس (The Bushy-Eyebrowed) (Ruled, 1204 عرف باسم مورتزو فيلوس Mourtzouphilos ، ويرجع ذلك لكثافة حاجبيه كثافة شديدة وتميز عينيه . [12]

والزوجة الرابعة للإمبراطور ليو الســادس (886-912م) الإمبراطورة " زوى " التى كانت تتمتع بقدر كبير من الجمال الأخاذ ، بسبب عينيها السوداوين الجميلتين ، أطلق عليها اسم (عيون الفحم الأسود) Karbounopsina كنعت وصفة لها . [13]

والمدهش أن كل ذلك الاهتمام بالعين وجمالها وعلاجها نجد أن الدولة البيزنطية لجأت إلى أبشــع عقوبة ، وهى عقوبة سمل الأعين ، ولا ندرى هل كانت طبيعة التربية فى الدولة البيزنطية هى التى فرضت تلك العقوبة بكل ما فيها من شدة وقسوة ، وهل كانت هذه مكتسبة من السلوك العدوانى الإنسانى أم أن سمل الأعين كان أكبر ضــرر يمكن إلحاقه بالخصــم ، لقد كانت وسـائل العقوبة والتعذيب منتشـرة فى معظم دول العصــور الوسـطى بما فيها الدولة البيزنطية كالقتل والاغتيال والإعدام والشـنق والشـوى والحرق والأسـر والنفى والعزل ... الخ ، غير أن أغربها لخروجها عن المألوف هى عمليات الســمل .. كان لابد من تتبع وسائل العقوبة فى بيزنطة وهى سمة لابد من إبرازها وتسليط الضوء عليها بغية إيجاد تفسير تاريخى لها .

لم تكن عقوبة سـمل الأعين معروفة تقريباً قبل القرن الثامن الميلادى ، فقبل ذلك كان هناك عقوبات جسـدية مختلفة ، فعلى عصــر الإمبراطور هرقل (610-641) مثلاً وفى أواخر أيامه عندما تقدم به السـن وأصــــابه المرض بلغه أن أبنه أتالاريخوس Atalarichus وثيودور Theodorus ابن أخيه يدبران مؤامرة ضــــده تم كشــفها ، لذلك أمر بقطع (بتر) أنفيهما وأيديهما ، كما أمر بنفى ثيودور إلى جزيرة Gaudomeleter وقطع رجليه عند وصــوله ، ونفذ ذلك حاكم الجزيرة ، كما طبقت بعض العقوبات الجسدية على باقى المتآمرين . [14]

جرت عمليات ســمل الأعين على الإمبراطور فيليبكوس بارداناس (711-713) وذلك عندما قام ملك البلغار تريفل بالزحف على القسـطنطينية ونجاحه فى تخريب ضــواحى المدينة الأمر الذى كشـف عن ضعف القوات البيزنطية فى الأجزاء الأوربية ولإنقاذ الموقف تم نقل جند الأبسيق (بآسيا الصغرى) الذين قاموا بإعلان الثورة على الإمبراطور وفى 3 يونيه سنة 713م تقرر عزله عن العرش وسمل عينيه . [15]

كما جرت عمليات سمل الأعين فى عهد الإمبراطور قسطنطين السادس (780-797م) الذى مات أبوه ولم يكن قد جاوز العاشـرة من عمره ومن ثم بقى تحت وصـاية أمه (إيرين) ثم أضـحت قسـيمه له فى الحكم ســنة 780م ، وبســبب ضــعفه وما حل به من هزيمة على يد البلغار ســنة 792م تطلع الجيش إلى تنصـيب عمه نقفور الحكم فما كان من قسـطنطين للمحافظة على سـلطانه أن أمر بسـمل عينيى عمه نقفور وقطع ألسنة أعمامه الآخرين خشية أن ينازعوه السلطة . [16]

ودارت الدائرة نفســها على الإمبراطور قســطنطين وذلك لازدرائه الكنيســة وطلاقه لزوجته التى اختارتها له أمه ليتزوج من عشيقته ثيودوت Theodotإحدى وصـيفات القصـر وكانت الإمبراطورة إيرين قد سـاءها مشـاركته لها فى السـلطة ولرغبتها فى الانفراد بالحكم وتطبيق سـياسـتها الدينية قامت بإجراء بالغ القسوة ، وبمساعدة اثنين من كبار مستشاريها هما ستاوريكبوس Stauricios, ايتيوس Aetios واستولت ورجالها على حجرة العرش ، وألقت القبض على ابنها الإمبراطور وأمرت باقتياده إلى الحجرة التى ولد فيها وبلا رحمة أمرت بســمل عينيه معلنة أنه غير مؤهل لحكم الإمبراطورية وأعلنت عودتها إلى الحكم منفردة مرة أخرى . [17]

كانت هذه الغرفة التى شـهدت مولده قبل ذلك بسـبع وعشـرين عاماً ، وبذلك تكون إيرين قد ضـربت أسوأ مثل للمرأة البيزنطية فى معانى الأمومة والعطف .

نقرأ أيضـــاً مؤامرة بســمل الأعين لم تتم دبرت للإمبراطور ميخائيل الأول رانجبيه (811-813م) قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية وذلك من قبل أوستراكيوس وزوجته الأثينية ثيوفانو وذلك بتدبير مؤامرة لإقصائه عن الحكم بسمل عينيه لكنها لم تتم حيث تم المناداة بميخائيل إمبراطوراً من الجند وأعضاء السناتو [18] .

جرت أوســـع وأكبر عمليات ســـمل الأعين فى عهد الإمبراطور البيزنطى باســـيل الثانى (976-1025م) Basil Bulgarktonus وذلك فى صراعه مع البلغار الذين أسسوا تحت قيادة ملكهم " مانويل صـــموئيل " مملكة امتدت من الأدرياتيك حتى أطلت على البحر الأســـود مارة ببلاد البلقان ، وكانت تمثل إزعاجاً للإمبراطورية البيزنطية الأمر الذى دفع الإمبراطور باســـيل إلى التعامل حربياً حيث قاد حملات حربية على مدى خمسة عشر عاماً للقضاء على مطامعهم ومقاومتهم حتى استطاع فى النهاية القضاء تماماً على الجيش البلغارى فى معركة وقعت فى يوليو سنة 1010م ، وكانت مذبحة مريعة كاد صـموئيل نفسه يقع فى أيدى البيزنطيين وحينما استولى باسيل على دروب سيمبالونجو Cimbalongou وقع فى الأسر خمسة عشرة ألف من جنود البلغار فأمر باسيل بسمل أعين هؤلاء الأسرى جميعاً إلا مائة وخمسين ، أبقى على عين واحدة لكل منهم ليقودوا زملاءهم إلى بلادهم . [19]

وعندما شاهد صموئيل هذا المشهد لم يستطع تحمل ذلك بشجاعة ، ووقع مغشياً على الأرض وبعد يومين لم يتحمل قلبه هذا المشهد وتوفى فى أكتوبر 1014م . [20]

واســتحق باســيل الثانى أن يطلق عليه ســفاح البلغار Bulgarocatonos أو قاتل البلغار أو ذابح البلغار [21]

يرى بعض المؤرخين أن الإمبراطور باســيل لجأ إلى هذا الإجراء العنيف بأن أرســل إلى كل قرية فى بلغاريا أحد هؤلاء العميان التعساء ، ليكون شاهداً على قوة الإمبراطورية والإمبراطور البيزنطى . [22]

تم تطبيق عقوبة سمل الأعين على الإمبراطور ميخائيل الخامس كالافاتس (1041-1042م) وكان قد أعتلى العرش فى ديسمبر سنة 1041م ولم يبق غير سنة واحد [23] . وكانت خطيئته الكبرى التى أدت إلى سمل عينيه هو تنكره للإمبراطورة زوى بورفيروجنتا (1028-1050م) التى جعلته عشيقاً وإمبراطوراً ، فبعد أن حصــل على ما كان يطمع فيه ، تخلص من صــاحبه الفضــل حيث حلق شــعرها ونفاها إلى دير برتكيبو . [24]

اشــتدت ثائرة الناس وشــبت فتنة فى القســطنطينية لأن ذوى كانت تعتبر وريثة الأســرة المقدونية والإمبراطورة الشرعية ، وانتهى الأمر بخلعه وعلى الرغم من أن الإمبراطور حلق شعر رأسه وليس رداء الرهبان وترهب غير أن ذلك لم يكن إلا بداية لأعنف مأساة ، حيث أصدرت ثيودورا شقيقة زوى وشريكتها فى الحكم الأمر بســـمل عينى الإمبراطور المخلوع وإيداعه فى دير الســـيمون Elsimon [25] هكذا تمت عملية الســمل على الرغم من اختلاف الزمن والطباع والســلوك والمشــاعر ، ولم يكن هذا الأمر خافياً عن المصادر العربية . [26]

جرت عمليات ســـمل الأعين فى عهد الإمبراطور قنســـطنطين مونوماخوس (1042-1054م) ، وذلك بأمر من بطريرك القســـطنطينية فى ذلك الوقت البطريرك ميخائيل كريولاريوس (1043-1058م) الذى أمر بسمل عينى (الخصى) حنا أورفانوتروفس سنة 1043م كتصفية حسابات قديمة . [27]

وتردد أيضاً فى المصادر العربية موضوع التهديد بالعقوبة الشهيرة فى بيزنطة عقوبة السمل ضد المسلمين والنصارى الغرباء الموجودين بالعاصمة البيزنطية حيث سرت شائعة فى القسطنطينية بأن الإمبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس قتل الأميرة زوى وثيودورا ابنتى قنسطنطين الثامن عندئذ ثار الأهالى وأعملوا النهب والسلب فخرج لهم قنسطنين وسألهم عن سبب ثورتهم فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفى تهمة القتل عنه وأخرج الملكتين ، فلما رآهما الناس سكنوا وعندما حقق فى الأمر علم أن الغرباء هم السبب الحقيقى فى ذلك الشغب وأشاروا عليه بإبعادهم ، فنودى " أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كحل لذلك رحل عن القسطنطينية أكثر من مائة ألف مسلم ونصرانى ولم يبق بها أكثر من اثنتى عشر نفساً ، ضمنهم الروم فتركهم . [28]

واجه أيضاً عقوبة سمل الأعين الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينيس (1067-1071م) بعد كارثة ملاذكرد والتى كانت من أفدح الكوارث الحربية التى نزلت بالإمبراطورية البيزنطية حين هلك جيشه كله على يد السلاجقة بل لقد وقع هو ذاته أسيراً فى يد السلطان السلجوقى ألب إرسلان ، ولقد كان لأنباء الهزيمة فى القسطنطينية وقع كبير ، لكن الإمبراطور البيزنطى اشترى إطلاق سراحه بالمال وعاد إلى القسطنطينية ليجد نفسه وقد خلعه أهلها أثناء غيبته كما أغتصب عرشه ميخائيل السابع دوقاس (1067 – 1078م) الذى ألقى القبض عليه وسملت عيناه ثم أرسل إلى دير بعيد ليقضى فيه ما تبقى من عمره [29] ، ولم يعش المسكين طويلاً إذ مات فى السنة التالية سنة 1072م .

يشير المؤرخ أتالياتوس إلى أن الجلادين الذين كانوا يقومون بهذه العملية كانوا يهوداً ويحكى مشهد عملية السمل التى جرت على الإمبراطور رومانوس حيث يذكر أنهم ذهبوا لاعتقاله ثم جثموا على صدره وبطنه ثم ربطوه من جوانبه الأربعة وقاموا بسمل عينيه بأداة حديدية ، خار روماتوس كالثور ولم يشفق عليه أحد وسالت عيناه وامتلأ وجهه دماً وفى مشهد بائس جروه كالميت وأرسلوه على أحد الحيوانات حتى وصل إلى بحر مرمرة فى حالة يرثى لها ، فى النهاية مات ودفن فى جزيرة بروتى Proti . [30]

وعقوبة سمل الأعين لم تشمل الأباطرة وحدهم بل شملت أيضاً المتمردين والقواد العسكريين ، مثل حالة تمرد نقفور بيرينيوس الذى تمرد فى وجه الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس (1067-1078م) ، واستمرت ثورته حتى عهد الإمبراطور نقفور بوتنياتس (1078-1081) ولم تفلح الطرق الدبلوماسية فى احتواء ثورته حيث كان يطمع فى التاج الإمبراطورى الذى وضعه فوق كل اعتبار حتى كلفه ذلك سمل عينيه فبعد دخوله فى معركة عند كالفريتا Calavryta وبمساعدة السلاجقة نجح القائد الكسيوس كومنين فى أسره سنة 1078م حيث اصطحبه معه إلى القسطنطينية ليلقى العقوبة الشهيرة فى بيزنطية . [31]

شملت أيضاً عمليات سمل الأعين من اتهموا بالهرطقة حيث طبقت عقوبة السمل على ميخائيل جليكاس Glykas المعروف باسم سيكيديتس Skidites والذى كان يعمل بديوان المراسلات بقصر الإمبراطور مانويل الأول كومنين (1143-1180م) وكان قد آثار عاصفة من المعارضات اللاهوتية حول موضوع (تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه فى التناول) مما كان سبباً فى انقسام الكنيسة أيام لبطريرك يوحنا العاشر كاماتيروس . [32]

ولم تشفع صلة الرحم فى ترك هذه العقوبة وتمثل ذلك فى حالة الإمبراطور إسحق انجليوس (1185-1195م) فقد كان أشد الناس عداوة له هم أقاربه الذين كانوا يعملون على إسقاطه ويسعى كل فرد منهم لوضع التاج على رأسه ، حيث قام شقيقه الأصغر الكسيوس انجليوس بعزله عن العرش فى أبريل سنة 1195م ، واعتلى عرش الدولة باسم الكسيوس الثالث (1195-1203م) بل إنه لم يكتف بالزج بأخيه فى

السـجن وخلافته على العرش ، بل أمر بسـمل عينيه حتى لا يتطلع بعد ذلك للعودة للحكم [33] وكانت جريمة مجردة من كل المشاعر الإنسانية والأخوية .

ولم يسـلم حتى الأطفال من عمليات سـمل الأعين وقد تمثل ذلك فى حالة الطفل يوحنا الرابع لاسكاريس (1258-1261م) فبعد سقوط القسطنطينية سنة 1204 على يد الصليبين وبقائها فى أيديهم أكثر من نصف قرن حتى 1261م ، وفى يوليو سنة 1261م تحررت القسطنطينية من اللاتين ودخل ميخائيل الثامن باليولوجوس (1259-1282م) وتوج إمبراطوراً وبعدها أعلن عودة العاصمة من نيقية إلى القسطنطينية ، وأعلن عزل الإمبراطور الصبى يوحنا لاسكاريس الذى كان شريكاً له فى العرش ، ولم يكتف بذلك بل أمر بعمل همجى لا مبرر له وهو سـمل عينى هذا الصبى ونفيه ، معلناً تعيين ابنه اندرونيقوس باليولوجس ولياً للعهد وشريكاً له فى العرش . [34]

وعمليات سمل الأعين جرت أيضاً على الأيقونيين (وهم الذين جسدوا المسيح والعذراء والقديسين بالتماثيل والصور واستعملوها فى دور العبادة وخارجها) من قبل اللا أيقونيين (وهم الذين يعتقدون بعدم جواز تشبيه المسيح والعذراء والقديسين بالتماثيل) خاصة فى عهد الإمبراطور قنسطنين الخامس كوبرو نيموس (741-775م) اللا أيقونى الذى قام بإجراءات عنيفة ضد عباد الصورة كالعذاب والتنكيل والتشريد والسجن وسمل الأعين . [35]

وكذا لم يسلم حتى الرهبان الذين تعرضوا للنفى والتنكيل والضرب وجدع الأنف وقطع اللسان بالإضافة إلى سمل الأعين [36] . بل أن ميخائيل لاخانودراكون Lachanodracon قائد ثغر تراقيسيون إرضاءً للإمبراطور قنسطنطين ، خَيَّرَ الرهبان بين التخلى عن الرهبنة بالزواج وبين سمل عيونهم ونفيهم إلى قبرص . [37]

وفى عهد الإمبراطور قنسطنين مونوماخوس (1042-1055م) طبقت عقوبة سمل الأعين على القائد ليوثورنيكيوس Thornikios الذى تولى قيادة المتذمرين من القادة العسكريين الذين طردهم قنسطنين من الخدمة أو أغفل ترقيتهم وحاول إسقاط الإمبراطور والسيطرة على القسطنطينية لكن حركته فشلت فى النهاية ووقع فى الأسر وتم تطبيق عقوبة سمل الأعين عليه وعلى مساعده فاتاتزس Vatatzes فى 24 ديسمبر سنة 1047م . [38]

وحتى السفراء الذين دخلوا أرض بيزنطة لم ينجوا من عمليات الإعماء فتذكر الحوليات التاريخية أن الإمبراطور مانويل كومنين (1143-1180م) سمل عين السفير البندقى هنرى داندولو أثناء إقامته فى القسطنطينية باستخدام مرآة مقعرة عكست ضوء الشمس بقوة مرتكباً بذلك جريمة الخيانة والإعتداء على حرمة السفير وكانت هذه الجريمة قد جرى حديثها على ألسنة الناس وسببت كره لبيزنطة والبيزنطيين . [39]

طبقت عقوبة سمل الأعين على القائد الكسيوس فيلانثروبينوس Philanthropenos الذى اشتهر بحملاته الشهيرة على الأتراك فى آسيا الصغرى ونودى به إمبراطوراً بعد ثورة غير ناجحة على حكومة اندرونيقوس الثانى فى القسطنطينية حيث ألقى القبض عليه وسملت عيناه سنة 1295م ، مما يؤكد أن الزمن لم يقضى على هذه العقوبة . [40]

كما طبقت عقوبة سمل الأعين على روسل باليل الذى قام بحركة انفصالية ضد الدولة البيزنطية على عهد الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس (1067-1078م) [41]

كما شـهد البيت الأيسـورى إعماء عدد كبير من الأمراء [42] ، كما أن عملية الإعماء وسـمل الأعين شـملت الخدم ، حيث لجأ الإمبراطور قنسـطنطين سـنة 792م لإعماء خادمه المخلص فى قصـر بمنطقة أرمينيا ، كما انتشرت هذه العقوبة بين القوات الأرمينية . [43]

ويأتى فيلارتيوس براخاميوس أحد زعماء الأرمن الجسورين والذى خدم طويلاً فى الجيش البيزنطى كأحد الجلادين المتأثرين بعقوبة بيزنطة الشهيرة حيث تمرد على الدولة البيزنطية وسيطر على إقليم مرعش الجبلى بإعماء وسمل عدد كبير من الأمراء الوطنيين . [44]

كما جرت عمليات الإعماء على بطارقة القسـطنطينية مثل حالة البطريرك كالينقوس Callinicv الذى أعمى ونفى فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى [45] (705-711م) .

كما جرت عمليات السـمل والإعماء والنفى ومصـادرة الأموال على كثير من المقاومين فى عهد الإمبراطور ميخائيل [46] (1259-1282م) .

ولم تكن هذه العقوبة خاصـة بالبيزنطيين وحدهم بل جرت على اللاتين المسـجونين حيث قام بهذه الفعلة الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس [47] (1259-1282م) ، فبعد اعتلاء أخيه مانويل الثانى العرش ، قضى عليه وطبق عليه العقوبة الشهيرة وإن كانت حالته أقل وطأة حيث خسر عيناً واحدة . [48]

غير أن العمى لم يكن كله فى بيزنطة عن طريق العقوبة بل هناك أسماء عدد كبير من فئات مختلفة فقدت البصر فى الدولة البيزنطية لأسباب مختلفة بعيدة عن العقوبة . [49]

عكست المصادر العربية جانباً من عمليات الإعماء وسمل الأعين التى كانت تقوم بها بيزنطة وذلك فى حالات إكراه الأسـرى العرب المسـلمين على اعتناق المسـيحية فعلى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (717-720م / 99-101هـ) أرسل سفيره إلى البلاط البيزنطى ، التقى بأسير عربى سملت عيناه بسبب رفضه اعتناق المسيحية . [50]

على أية حال هناك أسـماء عدد كبير من البيزنطيين الذين فقدوا بصـرهم بسـبب العقوبة الشـهيرة يطول ذكرهم . [51]

أصبح السمل أسلوباً رسمياً من أساليب التعذيب يمارسه المتغلبون ضد خصومهم السياسيين وأصبح صـناعة معروفة فى بيزنطة ، والشـواهد تشـير إلى أن هدف السـلطات البيزنطية لم يكن لمجرد الترهيب أو إرضـاء غرور بل يمكن التحدث هنا عن نية فيها سبق وإصرار وترصد بل يمكن اعتبار عقوبة السمل أمراً حيوياً سعت بيزنطة إلى تضمينه كآلية جديدة فى سياستها مع مختلف فئات البشر فهى من ناحية تكفل الأمان من هذا الشـخص الذى يسـمل حيث لا حول له ولا قوة أو فى ذات الوقت توفر دافعاً أو مبرراً توقف من تحدثه نفسه فى سلوك طريق تحدى بيزنطة بفئاتها الغالبة .

غير أن هذا العرض التاريخى يفرض عدة أسئلة فى هذا الشأن :

التسـاؤل الأول : ما الذى يدفع بيزنطة إلى اللجوء إلى هذه العقوبة ، ويقودنا هذا التسـاؤل إلى طرح تسـاؤلات أخرى أكثر أهمية : ما هى الظروف المسـوغات التى أتاحت لها القيام والإبقاء على هذه العقوبة ؟ وما هو موقف الدول والممالك من هذه العقوبة خارج بيزنطة ؟ كل هذا بحثاً عن أصـلها ومنبعها هل هو

الشـرق الإسـلامى أم الغرب الأوربى أم بيزنطة ذاتها ؟ وهل كانت لهذه العقوبة ظلال على آداب الشـعوب (الفلكلور) .

العميان خارج بيزنطة :

وإذا حاولنا أن نبحث عن هذه العقوبة أو على الأقل كيف انتقلت خارج بيزنطة نجد أن مملكة الفرنجة تحت سـلطة الميروفنجيين اتخذت العمى والإعماء إحدى عقوبات التمرد والعصـيان خاصـة فى مراسم بعض الملوك ، كما ذكر المؤرخ جريجورى التورى Gregory of Toutis . [52]

كمـا وجـدت عـقـوبـة الإعـمـاء عـنـد الـبـلـغـار وربـمـا تـكـون انـتـقـلـت مـن بـيـزنـطـة حيث انتهى الصـراع على السـلطة فى إحدى المرات بين اثنين من زعماء البلغار (Alusken, Deljen) بإعماء أحدهما كأسلوب لتنحيته عن الحكم . [53]

ألقت بيزنطة وعقوبتها الشهيرة بظلالها على الحملة الصليبية الأولى فقد شهد القسم الخاص بريموند كونت تولوز فى رحلته عبر دالماشـيا جرائم سـرقة وقتل من جانب قطاع الطرق واللصـوص أو من بين العقوبات التى ذكرها مؤرخ الحملة ريموند اجيل أن الكونت قام بسمل أعين البعض وبتر أقدام آخرين وجدع أنوفهم . [54]

ويبدو أن بيزنطة قد صدرت هذه العقوبة إلى أوربا حتى أن " ديورنت " يرى أن القسوة والوحشية كانتا فى العصور الوسطى أكثر منها فى أى حضارة أخرى ، ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا فى القرن الثالث عشـر عن بربريتهم بمجرد أن صـاروا مسـيحيين فقد كان المسـجونين يعاملون على سـبيل المثال بوحشـية وكانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها وتسقطها على خدودهم ، وأشكال أخرى من التعذيب تكفى رؤيتها وحدها لأن تبعث الأسى والألم فى النفوس . [55]

وقد جرى حكم وعقوبة الإعماء خارج بيزنطة فى سـنة 928 على أسـقف مدينة ميتز الأسـقف نينو Nenno of Metz ، وحـلـت هـذه الـعـقـوبـة أيضـاً عـلـى بـافـاريـا حـيـث قام هنرى الأول دوق بافاريا (948 –955م) بإعماء رئيس أساقفة سالزباخ Salzbvrg [56]

وفى إنجلترا تم إلغاء عقوبة الإعدام فى القوانين المعروفة " بقوانين وليم " سـنة 1066 ميلادية واستبدالها بعقوبتى الإعماء والإخصاء . [57]

واسـتمر إعدام كل المنتهكين فى إنجلترا حتى بعد عام (1066) لكن البند الثانى من قوانين وليم قد دخل حيز التنفيذ فقد أصبحت عقوبة الإعماء وإزالة الخصيتين العقوبة الشائعة لكل الذى يعرض حياة الملك للخطر [58]

كما عرفت النرويج العماء كعقاب لكن المؤرخين يؤكدون أنها لم تكن ظاهرة نرويجية ولكنها كانت قد انتقلت من البيزنطيين إلى عدة شـعوب من بينها النرويج وظاهرة الإعماء دخلت فى الأدب النرويجى . وأصبحت العينان سواء حادتين أو كفيفتين فى الأدب النرويجى تشير إلى الرمزية من حيث القوة والضعف . [59]

حتى فى صـــقلية النورمانية عرفت عقوبة الإعماء حيث أمر الإمبراطور هنرى الســـادس ســـنة 1197م أن تفقع عينى منافسه الملك وليم الثالث . [60]

المدهش أن أوربا بشكل عام التى عرفت عقوبة الإعماء اهتمت بالعينين وعلاجها حتى أن المصادر التاريخية تشير إلى أنه توجد مؤسسة طبية مختصة بعلاج العيون قام بإنشائها القديس لويس سنة 1256م وهو يعتبر مؤسس أول دار استشفاء للعمى وهى مستشفى Quinze-Vingts فى باريس . [61]

على أية حال فإن مؤرخى القرون الوسطى بشكل عام اعتبروا العقوبات الجسدية عقوبات شرعية ولم يصـــفوها بالأفعال العنيفة طالما كانت هذه العقوبات نتيجة لخيانة أو تآمر أو انتهاك لأوامر الملك أو ما شابه ذلك . [62]

أما فى الجانب الشرقى فعمليات سمل الأعين وإتلاف العين لم تكن تجرى فى الدولة الإسلامية بشكل كبير حتى تصـــل إلى حد الظاهرة كما هى فى الغرب ، ونقرأها بصـــورة مقتضـــبة فى المصـــادر العربية الإسلامية فى حالات قليلة ونادرة .

مثل قصة وردت فى صحيح البخارى ومسلم وبعض المؤلفات التراثية الأخرى تفيد بأن النبى محمد صلى الله وعليه وسلم سمل أعين نفر من أهل عرنة باليمن كانوا قد قدموا على النبى (صلى الله عليه وسلم) وأسلموا فاجتووا المدينة وكان بهم سقم فنصحهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها ، ففعلوا فصحوا ثم مالوا وارتدوا عن الإسلام وسملوا أعين الرعاة وقتلوهم واستاقوا الإبل قبلغ ذلك النبى (صلى الله عليه وسلم) فبعث فى أثرهم فأتى بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم . [63]

هؤلاء المذكورون فى هذه القصـــة ارتدوا وســـرقوا وســـملوا وقتلوا الرعاة واســـتاقوا الإبل وأخافوا الســـبيل فكان ما فعل بهم قصـــاصـــاً ، وهو عنف مبرر كان يقام لمنع تكرار هذا الفعل وهى بداعى التأديب والتطهير والمعالجة لا لغرض التشـفى والانتقام ، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك كثيراً من الأحاديث يحتاج من المحققين والعلماء تنقيتها وغربلتها فكثير من الأحاديث وضعت لتبرير أعمال الحكام الأمويين والعباسيين .

عرف المماليك أيضاً عقوبة الإعماء بيد أنهم كانوا يفرقون بين التكحيل والتسميل وقلع العين وأشياء أخرى ، فالتكحيل هو أن تســـود مواضـــع الكحل فوق منابت الأشـــفار ويكون التكحيل بالمرود ونحوه بعد تصليته بالنار ، والورود هو الميل من الزجاج أو المعدن . [64]

كما عرف المماليك التسميل أى فقعها بمسمار أو حديدة محماة ، والتسميل بهذا التعريف يختلف عن التكحيل . [65]

كما عرفوا أيضـاً لى الحبل على الأصـداغ حتى تسـيل العين ، وتنفر العين عن الوجه وتسـيل على الخد . [66]

كان ذلك وضـــع العقوبة خارج الدولة البيزنطية فى الشـــرق الإســـلامى والغرب الأوربى ، ونتناول الآن لماذا اتخذت بيزنطة هذه العقوبة كآلية معتمدة .

تحليل ظاهرة الإعماء بالدولة البيزنطية :

بداية نود القول أن العقوبة التى جرى اتخاذها فى القرن السابع فى الدولة البيزنطية وهى عقوبة جدع الأنف Rhinotmetus ، لم تعد لها أهمية ولم يجر تنفيذها مستقبلاً على الملوك المغتصبين أو المخلوعين . (67)

وفى بيزنطة كانت العقوبة تطبق فى عين واحدة أو كلتا العينين من قبل الجلاد ومساعده وهذا ما عبر عنه المؤرخون – كما كانت هناك ثلاثة أنواع من هذه العقوبة يمارسها الجلادون ويستخدمونها لإزالة العيون بالوسائل الآلية ، إما عن طريق خنجر من حديد أو آلة حادة متاحة ، وإما يستخدمون أوتاد الخيام أو سكاكين المطبخ أو أوتاداً من السياخ أو الشمعدان الزيتى ، كما كان الجلادون يقومون بوضع أداة حديدية ساخنة فى العين بطريقة تجعل العين مدمرة تماماً ، وكان يصاحب ذلك أزيز وهسهسة ، وكانت هناك طرق أخرى هى استخدام النيران بالقرب من العيون أو الغليان بسكب السائل فى العين . (68)

يرى البعض أن العمى وعقوبة الإعماء فى بيزنطة هى عقوبة قديمة فرضت على المسيحيين أيام الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (284-305م) واستمرت حتى وقت الإمبراطور قنسطنطين ثم توقفت وظهرت مرة أخرى سنة 705م فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى . (69)

وإن كان البعض الآخر يرى أنها لم يكن لها وجود ولم يكن لها ذكر فى قانون جستنيان الأول وإعماء الشهداء المسيحيين والاضطهادات التى قاسوها ربما تكون من باب الأسطورة لكن المؤكد أن عقوبات الإعماء ظهرت بقوة فى عهد الإمبراطور جستنيان الثانى سنة 705 . (70)

أما عن القوانين والتشريعات البيزنطية ، فقد ذكرت الأكلوجا أن عقوبة الإعماء طبقت فى حالات السرقة من مذبح الكنيسة كما ذكر قانون الفلاح أن الإعماء كان أحد عقوبات سارقى الحبوب أو النبيذ ، كما أعتبر الإعماء عقوبة الهرطقة والشعوذة والسحر وخيانة الوطن . (71)

وفى العصور الوسطى لم تكن السجون مكاناً للإيداع فى معظم الأحيان حتى القرن التاسع عشر ، فقد كان العقاب يتخذ شكلاً فيزيقياً جسدياً ولم تكن السجون نفسها سوى أماكن أو محطات يحتجز بها المتهمون فى انتظار المحاكمة ، وكانت السجون عبارة عن مواضع ذات طبيعة خاصة تقام فى القلاع والأبراج وغيرها من الأماكن المماثلة يودع فيها المتهمون فى انتظار المحاكمة أو العقاب ولم يكن الإيداع فى هذه الأماكن يعتبر عقاباً فى ذاته . (72)

ربما لجأت بيزنطة إلى عقوبة الإعماء لأن الإيداع بالسجون على أنها نوع من العقاب يعتبر فكرة حديثة نسبياً أقصد أن العقوبات السالبة للحرية لم تظهر كعقوبة رئيسية فى القرون الوسطى بشكل عام .

لكن السؤال هنا ما الذى يدفع البيزنطى إلى اختيار هذه العقوبة بالذات وهى عقوبة الإعماء . بعض المؤرخين يفسرون أخلاق البيزنطى التى تخرج عن العادة بأن البيزنطى كانت أعصابه فى بعض القرون تحيا فى توتر مستمر لأن مدينته كانت تقاسى حصاراً بعد حصار ، وفى هذا التوتر المستمر نستطيع أن نجد تعليلاً لبعض السمات التى قد لا تنال إعجابنا فى الشخصية البيزنطية . (73)

ويمكننا أن نفهم القصد البعيد لعمليات السمل والإعماء التى كانت تقوم بها بيزنطة مما لخصه أحد الباحثين المحدثين عن اتجاهات المبصرين نحو المكفوفين حيث ذكر " مونبك Monbeck " إنهم يستحقون

الرثاء والعطف ، إنهم يعيشـــون فى عالم كله كلام ، إنهم تعســـاء ، إنهم عاجزون ، إنهم مغفلون ، إنهم متســـولون ، إنهم فئة لا فائدة منها ، إنهم غير قادرون على العمل ، إنهم معاقبون على خطايا تم افترافها فى الماضى ، إنهم فئة يجب الخوف منها وتجنبها ونبذها ، إنهم يفتقدون إلى التوافق ، إنهم فئة غامضة . (74)

وهذا ما أكدته بعض الأبحاث الحديثة الخاصـــة بالضـــغوط النفســـية لدى المكفوفين تفيد بأن الإعاقة البصـرية تتسبب فى شـعور الكفيف بالعجز والدونية والإحباط ، كما تجعلهم أكثر شـعوراً بالضـغوط النفسـية والألم النفســـى ، وربما تفضـــى هذه الحالة إلى الموت ، وبالتدقيق فى الجانب الزمنى لحالات ســـمل أعين الأباطرة البيزنطيين والقواد وتاريخ وفاتهم نجد صـــدق هذه الأبحاث الحديثة فمعظمهم لم يعش طويلاً بعد فقدان بصره المتعمد . (75)

الملاحظ هنا أن عمليات الســمل وإتلاف العين التى قام بها البيزنطيون على بنى وطنهم كان يقصــد منه تعطيل الأهلية للحكم لأن حاســة البصــر شــرط ضــرورى من شــروط الحكم وحجة قوية فى عدم أهلية صاحبها للحكم .

وقد لامت المصادر التاريخية على موضوع الإعماء خاصة أنها تشير إلى أن إعماء إيرين لابنها قد تسبب فى وفاته . (76)

وذكر المؤرخ البيزنطى خونياتس أن الإمبراطور حنا كومنينى الإمبراطور (1118-1143م) هو الوحيد الذى قرر أن لا يحرم أحداً من حياته أو يلحق به أية إصابات بدنية من أى نوع . (77)

دخل موضوع العمى فى الفلكلور حيث ورد فى الأدب الشعبى ما يفيد بأن العمى هو إرادة الله ، كما ورد أن العمى عقوبة على سوء السلوك وأن النساء أكثر زبائن هذه العقوبة لأنهن يمارسن الجنس والخيانة . (78)

لكن موضـوع الإعماء التصـق بالبيزنطيين ، وألقى بظلاله على التراث الشـعبى العربى حيث يتناقل الناس كلمة (بظ عينى) (79) أى أتلف عينى أو بمعنى أصـــاب عينى بالســـوء ، ولعل القارئ يوافق الباحث بأن هذه الكلمة المتداولة بين الناس لها علاقة كبيرة بعمليات إتلاف العين التى جرت فى الدولة البيزنطية (بظ – بيزنطة) .

والمســتعرض لتاريخ الأباطرة البيزنطيين الذين لقوا الموت يجد أنهم ثمان وثمانون إمبراطوراً منهم ســـبع وثلاثون وفاة طبيعية ، وثلاثٌ لقوا حتفهم فى حوادث مختلفة ، وخمســـة فى معارك مختلفة ، وثلاث عشـر فى أشـكال عنف ، والباقى اضـطر إلى التنازل على العرش ودخول الدير والتى كانت بمثابة نوع آخر من الموت ، وكانت الوفاة مفاجأة شـــملت جميع الأعمار وجميع الفئات (80) ومعظم الذين زج بهم فى الدير كانوا العميان .

ومن الجدير بالإشـارة أيضـاً أن العملات البيزنطية لم تظهر أى تلميح أو إيماء عن تشـويه أو عقاب نزل بالأباطرة لأن ذلك لم يكن يتفق مع مثاليات ومبادئ الفن البيزنطى . (81)

لكن انتشـــار ظاهرة العمى انعكس وألقى بظلاله على الأيقونات حيث انتشـــرت الأيقونات بكثرة فى العالم البيزنطى والتى تفيد بشفاء الأعمى على يد المسيح وهى كثيرة ومتنوعة (82) لأن المسيح (عليه السلام) قام بشفاء العميان وكانت تلك معجزة وردت فى الكتاب المقدس والقرآن الكريم . (83)

ويبدو أن المعاقين كان لهم طريقاً متاحاً دوماً إلى الكنيسة فتشير المصادر التاريخية إلى أن الأديرة فى أوربا العصور الوسطى كانت تقبل المعاقين جسدياً أو عقلياً فقد كان الآباء يقدمون أطفالهم للدير كقرابين والأديرة بدورها كانت تقبلهم لأنها كانت تعمل كمراكز روحانية للإحسان والبر . (84)

تشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن الأطفال ذوى الإعاقة البصرية كانوا يستخدمون فى أعمال الشعوذة وذلك فى الحكايات والقصص التى وردت فى معجزات القديس مارثن St. Martin of Tour حيث أشار إلى أن طفلاً كفيفاً أعطى للمتسولين لكى يتجول معهم . (85)

الملاحظ أيضاً أن معجزة المسيح بشفاء الأعمى قد استمرت من قبل على كهنة الكنيسة حيث كان يمارس هؤلاء عمليات العلاج بطرق روحانية (86) لأن الكنيسة فى أوربا العصور الوسطى وبيزنطة كانت ترى أن الصحة الروحية مقدمة على الصحة العلاجية . (87)

والبيزنطى كان يعيش فى عالم تسيطر عليه القوى الخفية ، كان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجع دواء عنده ، والبيزنطى تحول بالسليقة إلى القديس بعد أن عاين عجز الطبيب . (88)

على أية حال فإن العمى والعميان أخذ مساحة ليست صغيرة من كتابات مؤرخى الدولة البيزنطية ، وليس كل ما كتبه وسطره المؤرخون عن عقوبة الإعماء فقط ولكن هناك قصة طريفة وقعت على عهد الإمبراطور الوثنى جوليان المرتد (361-363) ، حيث اقترب منه رجل مسنٌ يقوده صبى ، حيث صاح الأعمى فى وجه الإمبراطور أمام الجمهور واصفاً إياه بالزندقة والكفر والإلحاد ، فأجابه جوليان (إن ربك أيها الأعمى سوف لا يشفيك) ، فرد عليه قائلاً : أحمد الله الذى جعلنى أعمى لكى لا أرى فجورك . (89)

هكذا كانت بيزنطة قد رفعت راية هذه العقوبة البشعة ومئات من الناس سواء كانوا من الأمراء أو الحقراء دفنوا بلا عينين بمحجرين فارغين فعلوا كل شئ فقعوا العيون بآلاتهم الحادة وبأسياخهم المجمرة وسكبوا فيها الدواء الحارق وسالت شحمة العين على الخدين وانطفأت إلى الأبد ، يا لها من فظاعة كانت عليها بيزنطة .

قضايا المسنين في المجتمع

مقدمة :

يبدو أن بيزنطة عرفت مبكراً الحقيقة التى مُفادَها أن على أى مجتمع يود أن يسـاير ركب التقدم أن يوجه اهتمامه إلى الموارد البشرية والمتمثلة في قدرات وإمكانات وخبرات أفراده إلى جانب الموارد الأخرى ، فإلى جانب اهتمامها بالنشء لم تنس من قدموا لها في شـــبابهم خدمات في مختلف المجالات ، ويحتل المسنون في الدولة البيزنطية منزلة رفيعة المستوى نتيجة للتعاليم الدينية والغرس التربوى الذى تضطلع به دور العبادة والأسر لما قام به المسنون خلال سنوات حياتهم في إعمار الأرض وخدمة المجتمع

وتعد مرحلة كبر السن إحدى مراحل النمو الجسمى والنفسى التى يمر بها الإنسان في رحلة حياته من المهد إلى اللحد، واهم ما يميز هذه المرحلة هى التغيرات التى يمر بها المسن والتى تؤثر بشكل كبير عن رضاه عن الحياة والإقبال عليها ، والرغبة الحقيقية التى يعيشها

وحظى المسنون في الدولة البيزنطية باهتمام نفر من الباحثين فظهرت بعض الدراسات تحمل عنوان المســنين ورغم أن عنوان هذه الدراســات يوحى بتناول المســنين في الدولة البيزنطية على إطلاقه إلا أن محتواها لم يتضمن سوى عرض مختصر لبيوت المسنين وتاريخ إنشائها وبالتالى فإنه لم تزل هناك جوانب في حاجة إلى إلقاء المزيد من الضــوء عليها مثل حياة المســنين في المجتمع البيزنطى وحياتهم في المجتمع الديرى ، والرعاية الصحية والنفسية التى وفرتها لهم الدولة البيزنطية ، بالإضافة إلى قضايا خاصة بالمسنين يعرضها البحث في موضعها

والمسن هو من كبر سنه وضعفت قوته الجسمية والذهنية ويطلق عليه شيخ ويظهر عليه الشيب في الغالب فإذا زاد في الكبر أطلق عليه هرم أو كهل

ويستخدم الباحثون في مجال دراسة المسنين أحيانا مفهوم الشيخوخة وأحيانا أخرى مفهوم التقدم في العمر Aging على أنهما مترادفان ويشـيران إلى نفس المعنى وكلاهما قد اسْـتُخْدم بأشـكال مختلفة فمفهوم التقدم في العمر هو أحد المفاهيم المراوغة إلى درجة جعلت من غير المستطاع لعدد كبير من الباحثين تناوله تجريبيا، كما تعددت المقاييس المستخدمة في تحديد مرحلة الشيخوخة وشملت هذه المقاييس العمر الزمنى(ويهتم بتحديد السنوات التى يعيشها الإنسان) والعمر البيولوجى (وهو مقياس وصفى يهتم بالجانب العضوى) والعمر الســيكولوجى (ويهتم بالخصــائص النفســية والســلوكية) والعمر الاجتماعى (ويهتم بتوافقه الاجتماعى)

وبالتالى فإنه عند استعراضنا لتاريخ المسنين في الدولة البيزنطية يجب عدم الخلط بين مفهوم كبر السن (التقدم في العمر)، ومفهوم الشيخوخة ، فالأول يعنى الزيادة في العمر، أما الثانى فقد يعنى الأعراض أو التغيرات البيولوجية والفسيولوجية التى تصاحب التقدم في العمر ، وقد يعنى أيضا أحد مراحل التقدم في العمر (وهى تتضمن اضمحلال القدرة الوظيفية للجسم) وتبقى الحقيقة واضحة وهى أن معظم كبار السن ليسوا في حالة شيخوخة ، وبذلك استخدامنا مصطلح الشيخوخة لنعنى به الكبر أو التقدم في العمر يكون استخداماً غير دقيق ويشكل نوعا من الخلط بين المفاهيم

وعلى الجانب التاريخى في نشأة الاهتمام بالمسنين لم يكن البيزنطيون أول من اهتموا بظاهرة كبر الســن ، فقد كان الإنســان البدائى يعتقد أن حياته لانهاية لها ما لم تتدخل عوامل خارجية مثل الحوادث أو

السحر أو تضع حدا لها وكان لدى العديد من الشعوب البدائية وعيا بالعلاقة مابين التخلص من الجلد القديم وما يبدو من تجدد الحياة لدى بعض الكائنات الحية مثل الثعابين والزواحف

كما كان هناك اهتمام بالمسنين في بابل وآشور ومصر وفى البردية المصرية المشهورة باسم بردية إدوين سميت Edwin Smith التى ترجع إلى أربعة ألاف سنة تقريبا نجد إشارة في بدايتها إلى ذلك الكتاب الذى يهدف إلى استرداد الشيوخ شبابهم – ولكن مما يؤسف له حسب قول أليكس كفورت Alex Comfort: إن ما جاء في البردية لا يرقى إلى تحقيق ذلك المطلب – إذ إنها لا تضم في حقيقة الأمر سوى بعض الوصفات لعلاج الصلع وما إلى ذلك من التغيرات الظاهرية التى تبدو على الإنسان نتيجة لتقدمه في العمر

كما اهتم الإغريق بالمسنين وإن كانت اتجاهاتهم مشتقة في جزء منها إلى قدماء المصريين، كما يعد سيشرون Cicero (106-43 ق0م) الخطيب الرومانى أول من اهتم بالمسنين وبعد اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وفى القرون الوسطى سادت المعتقدات الخرافية في السحر والشياطين وانعكست بدورها على المسنين وحياتهم

ويعتبر البيزنطيون هم الورثة المسيحيون للثقافة الإغريقية القديمة ومن هنا فقد قدموا أفضل رعاية للمسنين، كما أن الكنيسة كانت تتضرع وتبتهل لكى تكون الأيام الأخيرة للمسن أيام سعيدة خالية من الألم يشملها الإجلال والوقار

ويقر البعض أن الاهتمام الكبير الذى أبدته بيزنطة للمسنين لم يكن مرجعه التبعية البيزنطية للمجتمعات القديمة عبر العصور الكلاسيكية التى أظهرت اهتماما بالمسنين بدرجات متفاوتة - لكن مرجعه المفاهيم الدينية المسيحية وقوة الإيمان المسيحى والتى انعكست بدورها على السلوك الأخلاقى والاجتماعى للفرد البيزنطى

والكتاب المقدس الذى يؤمن به البيزنطيون أعطى الشيخوخة منزلة مهمة وكرامة وأصبحت الشيخوخة تمثل رموزا يشار إليها بخصوصية في الكنيسة فهى رمز للغنى وامتلاك الخبرات والحكمة والفطنة ورمز للوقار والاحترام والإكرام ورمز أيضا للعلم والتعليم

كما أن الشيخوخة رمز لنقل وديعة الإيمان عبر الأجيال كما جاء في المزامير " يا الله لاتتركنى حتى أخبر بذراعك الجيل المقبل ويقوتك كل آت"

إلا أن هناك أيضا قيد آخر أعمق مما ذكرناه ذلك هو تأثير خفى لتقليد يفترض في الحكام " حب الإنسانية " أو " الخيرية " Philanthropia وهو تعبير عسير الترجمة ولكنه يعبر عن فكرة الناس طيلة قرن من الزمن ، كما كان يتحتم على الإمبراطور من إسداء خدمات إنسانية جلية لشعبه ، وهى فكرة لم تزل تحمل رأى الرومانى في معنى الوظيفة فهو يفترض على صاحبها حقوقا أدبية للشعب ولا ينظر إليها كما لو كانت مركزا يمنح صاحبه امتيازا شخصيا، وأخيرا كان المنتخبون قبل أن يوافقوا على منح أحد السلطة الإمبراطورية يستخلصون منه وعدا صريحا في مراعاة ذلك

هذه الفلسفة قد آمن بها الأباطرة البيزنطيون والعديد من أعضاء الأسرة الإمبراطورية ودفعتهم لممارسة الخيرية لخلاص أرواحهم ، فإذا كان الإمبراطور هو صورة الرب على الأرض والرب يتصف بالخيرية فقد رأى البعض أن الإمبراطور يجب أن يكتسب نفس الصفة فهى السمة الوحيدة التى تجعل

الإمبراطور محاكيا الرب، كذلك نظر الأباطرة إلى ممارســـة العمل الاجتماعى والخيرى على أنها أشـــياء تسعد الرب وتجعله يفضل هذا الإمبراطور ويكافئه في الدنيا والآخرة

والخيرية كلمة تعنى الحب بكل معانيه، حب الإنسـان لأخيه الإنسـان بوجه عام وللإنسـانية جمعاء وفى المعنى المسيحى البيزنطى أصبحت الكلمة ذات مدلول دينى يهدف للحب والعطف الإنسانى إذ قصد بها أى نوع من العمل يكون إنسانيا ومتحضرا كاهتمام المجتمع بالأيتام والمسنين والمرضى والغرباء، وأيضا عطف الإنسان على غيره من البشر ومساعدة هؤلاء الذين يعانون من الصعوبات والمحن، وربما الباعث الذى دفع البيزنطيين إلى الاعتقاد والإيمان بالخيرية وممارســتها هو البحث عن الإخلاص وهى تدخل في نطاق الفلسفة المسيحية للخيرية لأن البيزنطيين اعتقدوا أنهم في إطعام الفقراء ومساعدة الضعفاء وتقديم العون هو خدمة للمسيح نفسه ومحاكاة وتشبها به، ومن هذا المنطلق كانوا يأملون بأدائهم لأعمالهم الخيرية الرحمة والمغفرة لذنوبهم يوم يقفون أمام الرب يوم الحساب ، آمن البيزنطيون بكلمة المسيح وعملوا بها حين قال " إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعطى الفقراء فيكون لك كنزا في الســماء" ، كما انتشــرت تعاليم القديس باســيل العظيم التى تحض على الخيرية والعمل الخيرى حين قال " لو أنت لم تكن رحيما لن تجد الرحمة ولو أنت لم تفتح منزلك للفقراء سوف تحرم من مملكة السماء ولو أنت حرمت الخبز على الجائعين سوف تحرم من الحياة الأبدية "، كما آمن رجال الكنيسة وأساقفتها الذين كانوا يقومون بدور الوعظ في الكنائس بفكرة الخيرية حيث نجد رئيس أساقفة سالونيك سيمون السالونيكى في فترة متأخرة من العصــر البيزنطى (ت 1429م) يشــدد على هذه الفكرة بقوله " إن الخيرية وســائل جيدة لغفران الآثام وتحسين وضع الروح بعد الموت "

وتنامى الدور الاجتماعى وازدهر العمل الخيرى وتنافســت الأســر البيزنطية والأباطرة ورعاياهم الأثرياء في بذل هبات للمؤســســات الخيرية وإقامة المستشفيات ودور الأيتام والمسنين والتكيات وبيوت الفقراء التى كانت مثالا لفخر البيزنطيين ، كما أنشــئوا نُزلا للحجاج والغرباء وبيوت الأمومة وملاجئ للأطفال، واســتمر البيزنطيون في هذا التوجه طيلة العصــر البيزنطى في بذل الموارد المالية والإنفاق على سائر أعمال البر والإحسان طلباً الخلاص

ويســجل التاريخ لإمبراطورات وأميرات البيت الإمبراطورى ممارســتهم لأعمال الخير من خلال إنفاقهن ثرواتهن الشخصية على سائر أعمال الخير والبر والإحسان ورعايتهم للمؤسسات الخيرية وبيوت المسنين ومساعدة المحتاجين

ب - بيوت المسنين في الدولة البيزنطية وعمارتها :

قام البيزنطيون ببناء العديد من البيوت عرفت ببيوت المســنين وهؤلاء الذين لم يتمكن ذووهم من رعايتهم وفى الإطار الإنسانى عرفت بدار المسنين أو المعوزين، ووجدت في القسطنطينية في وقت مبكر من القرن الرابع الميلادى ، فعلى الأقل ســبع وعشــرون من هذه الدور وجدت في وقت واحد وكانت ملحقة بالأديرة وأسست الإمبراطورية البيزنطية العديد من هذه البيوت والأديرة، كان أشهرها " دير بانتوكراتور " الذى كان قادرا على استقبال المسنين والمرضى، كما كانت هذه البيوت تتلقى الأغراض المعيشية المختلفة كالنفط والحطب والأغراض الغذائية والمخصصات النقدية وأشهر هذه البيوت التى أنشأتها الدولة البيزنطية الملحقة الدير الســابق الذكر بانتوكراتور، ودير كوزموســوتيرا Kosmosoteira ودير القديس جورج George of Mangana

وكانت هذه البيوت تسمى " Gerocomeia " أو " Gerontocom-eia " وقد اشتقت في علم دراسة أصل الكلمة من الكلمة اليونانية Geros والتى تعنى السن الكبير و " Gerotropheia " التى تعنى يطعم أو يغذى ، وانتشرت هذه البيوت في جميع أنحاء الإمبراطورية ومعظمها كان ملحقا بالأديرة أو بالقرب منها، كما أن معظم هذه البيوت والمؤسسات تم تشييدها عن طريق العائلات الإمبراطورية والعائلات المالكة وبعض المحسنين الذين بنوا هذه البيوت في مجموعة متناغمة من الأبنية والمؤسسات الخيرية

وهناك مالا يقل عن ثلاثين مؤسسة من هذه المؤسسات معروفة بالاسم وقد أخذت اسم مؤسسيها على الرغم من وجود عدد كبير أخر من هذه البيوت غير معروف أصولها على وجه التحديد، والعدد الدقيق لهذه البيوت أو المؤسسات لا يمكن تحديده ولم يتم إنشاؤها في القسطنطينية وحدها، بل تشير المصادر التاريخية أنها قد وجدت في المدن الرئيسية أو الإقليمية مثل أنطاكية والقدس وأفيسوس ونيقيا وهرقليا وسالونيك وكورنثا والإسكندرية وغيرها

ومدير المؤسسة الخاصة بالمسنين كان يعرف باسم " Gerocomos " أو " Gerotrphos "، " Gerodocomos " أو " Gerocomicos " وفى وقت مبكر من القرن الرابع الميلادى حظى مدير مؤسسة المسنين باحترام كبير وليس مستبعدا أن يكون شريفا أو نبيلا، بل أنه ربما يرقى إلى عرش الكنيسة الأسقفية مثل ما حدث لمطران قبرص الذى كان أرستقراطيا وطبيبا ومديرا لأحد بيوت المسنين ثم انتخب أسقفا

بل إن أحد المؤرخين أشار إلى أن مدير مؤسسة المسنين كان دائما من المقربين للإمبراطور البيزنطى، حيث حرص هؤلاء على التواصل مع الإمبراطور وقدم أحدهم إهداءً للإمبراطور أثناء إحدى الاحتفالات التى كانت عبارة عن صلبانا ذهبية

ونظرا لأهمية وظيفة مدير البيت فقد حصل هؤلاء على رتب رفيعة في الدولة مثل رتبة " " Spotharios

تشير المصادر التاريخية أيضا إلى أقدم بيت للمسنين أنشأ في القسطنطينية كان ملحقا بأقدم مستشفى في القسطنطينية حيث قامت الإمبراطورة هيلين والدة الإمبراطور قنسطنطين العظيم بتشييده إلى جانب قصر وكنيسة في الموقع الجغرافى المعروف باسم Psamathia واسمها الحديث Samatha وذلك في القرن الرابع الميلادى ، وقد بقت هذه المؤسسة تؤدى دورها حتى القرن الرابع عشر الميلادى

كما أن هناك بيتا آخر أنشئ في القرن الرابع الميلادى ينسب إلى الأرستقراطى الرومانى أيوفراتوس Euphrata الذى قدم إلى القسطنطينية من روما مع بعض الأرستقراطيين على عهد الإمبراطور قنسطنطين العظيم، وقد استمرت هذه المؤسسة حتى القرن الثالث عشر الميلادى وكانت تقع في منطقة هيوم كابى، وفى عهد الإمبراطور أركاديوس (395-408م) قام الأرستقراطى فلورنتيوس Florentins بتحويل منزله ومقر إقامته إلى بيت للمسنين

أما بيوت المسنين التى أنشأت في القرن الخامس الميلادى على عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثانى من (408-450م) قام أيضا أحد الأرستقراطيين ويدعى دكسيوكراتس Dexiocrates بتحويل منزله إلى دار رعاية للمسنين وبنى بجانبه كنيسة وهذا البيت كان يقع على القرن الذهبى ، وكانت هذه الدار ذات أهمية كبيرة حتى أن أحد رؤسائها وصل إلى منصب بطريرك القسطنطينية هو المدعو حنا الخامس (669-675م) ، وفى عهد الإمبراطور مارقيان (450-457م) قام هو وزوجته " بولكريا " بإقامة مؤسسة للمسنين في حى (Prasina) في القسطنطينية وكان هذا المكان معروفا فيما قبل " باسطبلات الخضر "،

وهذه المؤسسة وهذا البيت اعتمد بشكل كبير على الهبات والتبرعات والمنح، واستمر حتى القرن الثامن الميلادى حتى تعرض للمصادرة على يد أرتابا سادوس Artabasados الإستراتيجوس الأرمينى الذى ساعد الإمبراطور ليو الأيسورى (717-741م) للوصول إلى العرش

كما أن هناك واحداً من أقدم بيوت المسنين كان قائما في القسطنطينية ، وقد أقيم في القرن الخامس الميلادى على يد الماجستر أنثيميوس Anthemius الذى تزوج ابنة الإمبراطور مارقيان وأرسل في وقت لاحق إلى روما في سنة 467م كإمبراطور للغرب ويقع هذا البيت في القسم الغربى من مدينة القسطنطينية بالقرب من صهريج موكيوس Mocios

والملاحظ أيضا أن هناك عدداً كبيراً من دور المسنين أنشأت في القرن الخامس الميلادى في فلسطين البيزنطية وتحديدا في القدس باعتبارها مدينة الحج التى كانت في حاجة دائمة إلى مبانٍ لاستيعاب حشود الزوار والمغامرين ، هذا بالإضافة إلى المستشفيات ودور العجزة والنزل المختلفة

وفى مدينة القدس البيزنطية أيضا الإمبراطورة الأثينية أيدوكيا(408-450م) بنت دارا للمسنين إلى جانب كنيسة تكريما للقديس جورج

وتؤيد بعض الاكتشافات الأثرية صدق ماورد في هذا الشأن من أن هناك بيوتا للمسنين في القدس حيث تم اكتشاف نقش بيزنطى سنة 1873 م في القدس على الجانب الشمالى من برج مربع كبير ، وقد أشار لذلك أحد علماء الآثار

أما القرن السادس الميلادى فكان غنيا بالمؤسسات الخاصة بالمسنين وهناك ما لايقل عن ستة مؤسسات لكبار السن معروفة بالإسم مثل مؤسسة Narses نارسيس الشريف الرومانى Protospatharius الذى كان يعيش في عهد الإمبراطور جستين الثانى (565-578م) وطبقا لما أورده المؤرخ ثيوفانس فقد بناه سنة 570م

وقد ناقش العديد من العلماء والمدارس الأثرية الموقع الخاص بهذا البيت ، ويرجح المؤرخ المحدث جنين أن هذا المكان فى الوقت الحاضر هو المعروف الأن باسم Zindankapi or odunkapi

وفى عهد الإمبراطور جستين الأول (518-527م) كانت هناك مؤسسة باسم Isidorou وقد كانت منزلا تحول إلى مؤسسة لكبار السن ، كما تم إضافة كنيسة بجوار هذا المنزل وضمت هذه المؤسسات غرفة للغرباء تحمل اسم Xenones

وفى عهد الإمبراطور جستنيان الأول (527-565م) قام أحد الحكماء الأرستقراطيين ويدعى بطرس بتحويل مقر إقامته وسكنه إلى بيتا للمسنين وأصبح هذا البيت يعرف ببيت بطرس للمسنين

وشهد عهد الإمبراطور تيبريوس الأول قنسطنطين (578-582م) بناء العديد من دور المسنين والكنائس والمستشفيات كما أشار إلى ذلك المؤرخ مانسيس Manasses، وهناك واحد من أفضل المنشآت الخاصة بالمسنين أنشأها ستيفانوس Setphanos الحارس الليلى Parakoemomenos للإمبراطور موريس (582-602م) وتميز بصهريج ضخم للماء وحمامات كثيرة للاستحمام وعيادة طبية للغرباء ومواطنى الريف الذين يزورون العاصمة ، وقد استمر هذا البيت يستقبل زواره حتى سقوط القسطنطينية سنة 1453م, وستيفانوس هذا بنى دار ثانية للمسنين عرف باسم ساجما Sagma وليس هناك معلومات كثيرة عن هذا الدار

كما أن هناك اثنين من أكبر بيوت رعاية المسنين قد تأسست في نهاية القرن السادس ومن المفترض أن يكون الأول قد أنشـأ بواسـطة الإمبراطور موريس Mauricius (582-608م) وهذا البيت أخذ اسـم Karianos والآخر قد تأسس بواسطة البطريرك Apollinarus بالقرب من الكنيسة المعروفة باسم كنيسة الثلاثة أطفال بالقرب من Doryzin ومؤسسات شبيهة ومماثلة لهذه المؤسسات قد أنشأت من قبل أساقفة

وفى خلال القرن السـابع الميلادى ووفقا للمصـادر التاريخية كانت هناك العديد من البيوت والمستشفيات الخاصـة بالمسنين تم إنشاؤها كان أهمها مؤسسـة وبيت كبير أنشأ للمسنين في إقليم سكالا Scala في القسطنطينية وعرف بنفس الاسم ولا يوجد مايفيد عمن هو مؤسسها والمعلومات الوحيدة التى نعرفها ندين بالمعرفة لها للمؤرخ الكنسـى نيقفورس كاليسـتوس فى القرن الرابع عشـر وقد كتب عنه أنه عندما انتخب البطريرك توماس الثانى Thomas إلى العرش المسكونى سنة 676م فإنه أوصى بعمل بيت للمسنين الذى كان في إسكالا

والبطريرك سيديروس Sederos الأخ بالتبنى للإمبراطور قسطنطين الثانى (641-668م) شيد بيتا للمسنين وعرفت هذه المؤسسة باسمه، كما أن زوجته أضافت بعد ذلك كنيسة بالقرب من هذا المكان من أجل خاطر زوجها ، وقد بنيت هذه الدار بالقرب من منطقة Taures، وفى الربع الأخير من القرن السـابع قام " أندرو " أسقف كريت بأعمال خيرية وإنسانية في أسقفيته شملت بيتا للمسنين

أما بيوت المسنين في القرن الثامن الميلادى فقد كان هناك دار للمسنين يسمى Geragathis في منطقة Petrion وقد بنيت طبقا لما أورده المؤرخ Pseudo-Codinos بواسـطة أجاثى Agathi أخت البطريرك في عهد الإمبراطور قسـطنطين الخامس كوبر وتيموس (741-775م) وكانت هذه المرأة من رواد هذه المؤسسة لأنها ظلت عجوزاً بكراً متقدمة في السن محافظة على جمالها وعذريتها

وفى القرن التاسع الميلادى نجد أن الإمبراطورة إيرين الأثينية (797-802م) قد شيدت العديد من المؤسسات الخيرية والمستشفيات التى شملت بيتا للمسنين ،وليس من المعروف وجود مؤسسات أخرى في القرنين الثامن والتاسع الميلادى

أما بيوت المسنين في القرن العاشر الميلادى فيشير المؤرخ ثيوفانس إلى أن الإمبراطور البيزنطى قسـطنطين بورفيروجينتوس (923-959م) حول العديد من الإسـطبلات- كان قد أقامها البطريرك ثيوفيلاكتوس (933- 956) بالقرب من الكنيسة الشهيرة " اياصوفيا " حولها إلى بيوت لرعاية المرضى والمسـنين كما قامت زوجته الإمبراطورة هيلين بإنشـاء مجموعة من الأبنية الخيرية كان من بينها دارا للمسنين وعرفت هذه المنشآت باسمها ، وكانت تقع في مقاطعة Oldpetre والتى من المحتمل أن تكون اليوم هى السـاحة المعروفة باسـم Petrikapi وهذه الإمبراطورة كانت شـديدة الإخلاص لما تقوم به من أعمال خيرية حتى في مرضـها ، وزوجها الإمبراطور بدوره أصـدر كتابا Chrysopull يمنح هبات وامتيازات لهذه المؤسسات

وفى نفس هذا القرن قام الإمبراطور ليو السادس الحكيم (886-912م) بإجراءات أفادت كبار السن حيث طرد نزلاء أحد بيوت الدعارة في القسـطنطينية في مقاطعة Kyphes وحول هذا المبنى إلى بيت للمسنين ، ولاحظ ابنه قنسطنطين السابع أن والده كان يزور هذا البيت كل يوم جمعة من الأسبوع بصفة شبه دائمة بعد عودته من القداس في الكنيسة المشهورة Blachennes حيث يقوم بتوزيع الهبات والصدقات على المسنين ويقوم أيضا برعاية مرضى الجذام في الجناح المتخصص من هذه المؤسسة التى كانت تضم

أكثر من بناية ونحن لانعلم أين تقع هذه المؤسسة تحديدا ولكن المؤرخ الأثرى جينن يرجح أنها كانت قائمة فى القرن الذهبى

وتشريعات وقوانين هذه الفترة تذكر أيضا أن هناك بيتا للمسنين كان بالقرب من دير Myrelaion وهذا الدير يدين بأصله ومصدره إلى الإمبراطور رومانوس ليكابينوس (920-944) ومن المرجح بشكل كبير أنه هو الذى بنى بيت المسنين الذى بجواره في هذه المنطقة وفى هذا المكان الأن يوجد مسجد Bodreemcami والمسجد أنشأ وبنى في المكان الذى كانت فيه الكنيسة البيزنطية

وأثناء عهد الإمبراطور نقفورس فوقاس (963-969م) كان عدد بيوت رعاية المسنين قد وصل إلى القمة حيث كانت كثيرة جدا حتى أن الإمبراطور أصدر قانوناً يمنع بناء الأماكن الخيرية الملحقة بالأديرة من أجل الحد من زيادة أعداد هذه المؤسسات واكتفى فى هذا القانون بالسماح بترميمها، وإن كان هذا التشريع قد ألغى فى وقت لاحق بواسطة الإمبراطور باسيل الثانى (976-1025م) بمرسوم معتمد بالختم الذهبى

وآخر مؤسسة للمسنين فى القرن العاشر الميلادى عرفت باسم Eugeniou والإشارة الوحيدة الخاصة بهذا البيت وجدناها فى كتاب الاحتفالات للإمبراطور قنسطنطين السابع بورفيروجنيتيوس (1025-1028م)

أما القرن الحادى عشر الميلادى فقد شهد بناء وإقامة العديد من بيوت المسنين والمستشفيات والأماكن الخيرية حيث قام الإمبراطور ميخائيل الرابع (1034-1041م) بإنشاء العديد من هذه البيوت والأماكن الخيرية وأوقف بعض العقارات بحيث يكون دخلها ذاتيا وتكون مستقلة ذاتيا

ثم جاء بعد ذلك الإمبراطور قنسطنطين التاسع منوماخوس (1043-1054م) صار على نفس النهج وأنشأ عدداً من الأبنية والمؤسسات الخيرية احتوت على دار للمسنين فى الربع المعروف باسم Maggana بالقرب من دير القديس جورج

وهناك بيت للمسنين عرف باسم Pacourianos أخذ اسمه من اسم مؤسسة وقد أنشأ فى عهد الإمبراطور الكسيوس الأول كومنينوس (1081-1118م)

كما سجلت أنا كومنينا ابنته أن والدها شيد المدينة الجديدة وأقام حولها العديد من المبانى الخيرية التى شملت بيتا للمسنين

وواحد من ثلاثة أباطرة من الذين أطلق عليهم اسم (رومانوس) وهم رومانوس ليكبينوس (920-944م) رومانوس الثانى (959-963م) رومانوس الثالث أريجيروس (1028-1034م) أعطى اسمه لإحدى دور المسنين حيث ذكر فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ومعلوماتنا عن هذا الموضوع جاءت إلينا فى ستة كلمات من تيبكون (سجلات الأديرة) بانتوكراتور Typikon Pentocrator حيث حكت سجلات هذا الدير أن الإمبراطور حنا الثانى كومنين (1118-1143م) قرر أن يبنى بيتا للمسنين لهؤلاء الذين يعانون من مرض الجذام واختار أن يبنى هذا بالقرب من بيت المسنين الخاص بالإمبراطور رومانوس دون تحديد أى من الأباطرة الثلاث

وأشهر بيوت المسنين فى الدولة البيزنطية والأكثر أهمية كان فى القرن الثانى عشر حيث كان يقع هذا البيت فى مجموعة مبانى الدير الشهير ومستشفى بانتوكراتور Pantocrator وأمر بتشييد هذه

المؤسسة الإمبراطور حنا الثانى كومسنين (1118-1143م) وكانت مأوى ليس فقط للمسنين بل للمعاقين والمقعدين والمشلولين وأولئك الذين كانوا غير قادرين على العمل

وفى منتصف القرن الثانى عشر اسحق كومنينوس شقيق الإمبراطور حنا كومنين (1185-1195م) شيد دارا لرعاية المسنين فى دير الأم المقدسة كوزموزتيرا Cosmosteira مخلص العالم وكان قد وهبه كل الاحتياجات الضرورية

ج- حياة المسنين فى المجتمع الديرى

من الثابت أن الفترة المبكرة من تاريخ الرهبنة لم تهتم بالمشكلات الاجتماعية وبالعالم الخارجى ، حيث إن الفكر الرهبانى لدى النساك والزهاد والرهبان الأوائل كان قائما على فكرة تحقيق الحياة المثالية فى ظل حب المسيح والرب بعيدا عن الانغماس فى الحياة الدنيوية

إلا أن ذلك المفهوم قد تغير تحت قيادة القديس باسيل العظيم حيث قرر ألا تنفصل الحياة الرهبانية عن العالم الخارجى وأن يكون للراهب دور فعال فى المجتمع وألا يكون حب الخير موجها فقط من قبل الرهبان لبعضهم البعض بل يمتد أيضا إلى المجتمع ككل

ومن هنا فقد أصبح الدير البيزنطى قوة بناء داخل المجتمع فإلى جانب كونه دارا للعبادة فقد أصبح مركزا هاما لرعاية المرضى واستقبال المسافرين والمحتاجين والفقراء وكل من هم فى حاجة للاهتمام والرعاية والمطلع على سجلات الأديرة (التبيكا) يتضح له الدور الكبير الذى قام به الدير البيزنطى فى تقديم الأعمال الخيرية

من ناحية أخرى فقد أكدت التيبيكون على مفهوم الدير المستقل وضرورة أن يكون الدير حرا ومستقلا وغير خاضع لأى سلطة خارجية سواء كانت كنسية أو علمانية

وكان وفاة أحد الزوجين أو فقدان الأبناء أو التقدم فى السن من أكثر الأسباب والمحن الأسرية التى تدفع الفرد إلى الالتحاق بالدير

ومن جهة أخرى شددت القواعد الديرية وأكدت على ضرورة الاهتمام بالرهبان بشكل عام والمرضى وكبار السن بشكل خاص وكذلك الراهبات المريضات والطاعنات فى السن وتوفير سبل العناية والرعاية الصحية المختلفة بهم من خلال ماتسمح به موارد الدير

ومن الملاحظ أن اختيار منصب رئيس الدير كان يشترط فيه أن يكون من المسنين ويأتى منصب رئيس الدير على رأس الوظائف الإدارية داخل الدير، ونظرا لما يحتله من مكانه هامة ومنزلة رفيعة بين أعضاء المجتمع الديرى فقد اكتسب أهمية خاصة فى أعمال وكتابات القديسين، حيث صور كل من القديس ثيودور الستودايتى والقديس سيمون اللاهوتى المجتمع الديرى بالجسد البشرى الواحد الذى يأتى فيه رئيس الدير فى مقدمة الجسد " الرأس " منبع العقل والحكمة وباقى أعضاء المجتمع الرهبانى يمثلون العين والأيدى والأقدام وبالرغم من أن كل عضو له وظيفته إلا أنه الأهم بين أفراد المجتمع الديرى

اشترطت معظم الأديرة ألا يكون اختيار الشخص المرشح لمنصب الرئيس قائما على أساس السن فقط بل على الفضيلة والمكانة التى يتميز بها عن غيره بين أفراد المجتمع الديرى

وحتى الأديرة النسائية اشترطت أن تكون الراهبة المرشحة لذلك المنصب من كبار السن المتسمات بالعقل والحكمة والقدرة على القيادة

وبالرغم من اختلاف المهام المعهودة إلى رئيس الدير من دير لآخر طبقا لما نص عليه تيبكون كل دير على حدة إلا أنها اتفقت على أن يكون رئيس الدير بمثابة الأب الروحى لكل الرهبان وأن يعمل على رعايتهم والاهتمام بشئونهم الروحية والمادية والإنصات بكل عناية إلى اعترافاتهم اليومية وعلاج المرضى منهم وتوفير كل سبل الراحة لهم وأن يتعامل بحب وعاطفة أبوية مع الجميع سواء كان كبيرا أو صغيرا وأن يكون قدوة يحتذى بها بين الرهبان

وفى التنظيم الهيراركى للوظائف الإدارية داخل الدير البيزنطى نص التنيبكون على وجوب وجود منصب المشرف المالى " الأويكوتوموس " وكان يتم تعيينه من قبل رئيس الدير ويتم اختياره من بين الرهبان أصحاب الفضيلة والطريق القويم، وكان يتم أيضا تعيين مسئولا ماليا لدار المسنين وكان يدير الدير وفقا لقوانين وقواعد وصلاحيات يمنحها له رئيس الدير

ومن المهام المسندة للمشرف المالى هو الإشراف على نظار الأراضى التابعة للدير فى الأقاليم المختلفة وهؤلاء الأشخاص كانت مهمتهم الإشراف على أملاك الدير من أراضى وأبنية على حد سواء وكان يتم تعيينهم من قبل رئيس الدير ويتم اختيارهم من بين الرهبان الطاعنين فى السن إن أمكن والمشهود لهم بالسمعة الطيبة والتفانى فى العمل

وبالاطلاع على بعض نصوص التيبكون نجد أيضا أنها خصت المسنين بوظيفة عرفت بحارس البوابة (البيليوناريوس) وهو الشخص المسئول عن حراسة بوابة الدير مثل دير لافارا الذى نص التيبكون الخاص به على أن يكون الشخص الذى يتم اختياره من بين الرهبان الطاعنين فى السن أصحاب الحكمة والفضيلة وكانت حجرته تقع ملاصقة لبوابة الدير كما كان مسئولا عن مفاتيح بوابة الدير ومهمته هى عدم السماح لأى شخص بالدخول أو الخروج من بوابة الدير حتى وإن كان أحد أقاربه أو معارفه دون إذن من رئيس الدير

وحتى فى الأديرة النسائية أسندت وظيفة حارسة البوابة " البولورس " إلى واحدة من الراهبات الطاعنات فى السن والمتسمات عن غيرها بالحكمة وكانت مسئولة عن عمليات الدخول والخروج

كما كانت هناك وظيفة المراقب وهو الموظف المسئول عن حفظ النظام داخل الدير، اشترطت بعض الأديرة على أن يكون من كبار السن المشهود لهم بالحكمة والخلق القويم

وفى الأديرة البيزنطية كان يعتبر العمل اليدوى، كالطقوس الدينية مثل القديس ثيودور الستودايتى الذى كتب عن أهمية العمل اليدوى حيث كان يرى أن العمل هو معيار الحماسة وذكر أن الشخص المتوهج بالعمل الجسدى هو أيضا متوهج بالعمل الروحانى ولذلك اشترك المسنين مع الشباب فى العمل بكافة أشكاله فالقديس إثناسيوس الأتونيتى دفع حياته ثمنا لتفانيه فى أداء عمله حيث لقى حتفه حينما سقط من أعلى السقالة التى كان يقف عليها مصطدما بكتلة من الصخور بينما كان يقوم بأعمال البناء قى الدير

وفى " دير كيشارتمونى " ونظرا لأن القانون الكنسى لم يتح للمرأة تولى الوظائف الدينية فقد كان يتم تعيين رجل دين من المسنين كأب روحى للراهبات يستمع إلى اعترافاتهن ويوجههن إلى علاج أرواحهن

أما عن أراضى الأديرة الرهبانية والمؤسسات الدينية فالملاحظ فيما يخص المسنين أن هناك عدداً كبيراً من الأراضى توزع على الرهبان، وهؤلاء الرهبان حينما يتقدمون فى العمر يقومون بإعادة هذه

الأراضـــى إلى الأديرة مرة أخرى مثل ماحدث فى " دير إيفرون " ســـنة 1007م حيث أعاد أحد الرهبان أرضاً زراعية لم يستطع رعايتها لتقدمه فى السن

أما عن النفقات التى كانت تنفق على بيوت المســـنين والملحقة بالأديرة فتشـــير ســـجلات الأديرة بوضوح كامل إلى النفقات الشهرية واليومية لهذه البيوت

وفيما يخص الرعاية الطبية فالواضح أن الدولة البيزنطية أنشأت العديد من المؤسسات الخيرية كان من بينها منازل لرعاية المرضى ويعتبر مستشفى " بانتوكراتور " من أهم المستشفيات ومن أبرز المؤسسات العلاجية وتعتبر نموذجا مثاليا من حيث الإدارة والتنظيم، فكان به جناحا لرعاية المسنين

وفى نفس شـأن الرعاية الطبية تشـير سـجلات الأديرة الاهتمام الواضـح بالرهبان والمرضـى وكبار السن وكذلك الراهبات المريضات والطاعنات فى السن وتوفير سبل الرعاية والعناية الصحية لهم حيث تشير التبيكا إلى الغرف المخصصـة والمجهزة لاستقبال المرضـى والممرضـين الذين يعملون على تلبية احتياجات المرضى والأسر والأطباء المختلفين والذى كان يشترط أن يكون الطبيب أخصائيا ومن كبار السن وذلك كما أشارت سجلات أديرة باكوريانوس وكيبشارتيمونى سانمماس وهليويمن وغيرها من الأديرة

وفى حالة وفاة أحد الأفراد المسنين سواء كان مريضـا أو معافا ذكرا أو أنثى فكانت تقام له الطقوس والخدمات الجنائزية على روحه وفى ذكرى الأربعين لوفاته أو وفاتها كان يتم تقديم المنح والعطايا للفقراء من ممتلكات المتوفى من أجل خلاص روحه أو روحها

الملاحظ أنه كانت هناك عقوبة صـــارمة، لم يســتثن منها المســنون وكانت تجرى على كل الرهبان أيضـــا وهى عقوبة الطرد من الدير حيث شـــددت القواعد الديرية أنه فى حالة محاولة أحد انتهاك القوانين والقواعد متجاهلا الأوامر فإنه يتعرض للطرد لقناعة الدير ان الذى يقوم بذلك قد أصـــبح فى هذه الحالة مثل العضو المريض الذى لايرجى شفاؤه

الملاحظ أيضـا أن هناك كثيراً من القديسـين والديريين المسـنين الذين كانوا يقومون بنشـاط فعال فى نشـر المسـيحية ولم يقف السـن حائلا فى قيامهم بالتجوال عبر الريف اليونانى يعظون الناس ويعملون على تجديد إيمانهم المسيحى بعد حالات الردة إلى الوثنية وهناك إشارات إلى أسماء الكثير منهم الذين عملوا على تقديم العون والإرشاد فى المجال الروحانى والدنيوى

والمكتبـات الـديريـة كـانـت تمثل مركزا أدبيـا وثقـافيـا كبيرا منـذ فترة مبكرة من الـدولـة البيزنطيـة واضطلع عدد كبير من المسنين بعمليات نسخ لمجلدات وجمع مؤلفات مما كان له أثر كبير فى نهضة الآداب والفنون

د- حياة المسنين فى المجتمع البيزنطى

انقسـم المجتمع البيزنطى إلى ثلاث طبقات رئيسـية هى الطبقة العليا (الأرسـتقراطية) ، والطبقة الوســـطى ، وطبقة العامة وضـــمت كل هذه الطبقات فئة المســـنين ، وكانت لكل طبقة من طبقات المجتمع مظاهرها الاجتماعية وكان الصـــعود والهبوط من وإلى طبقة أخرى مظهرا من مظاهر الحراك الاجتماعى فى المجتمع البيزنطى بشكل عام

وعلى مابيدو أن مجتمعات العصور الوسطى بشكل عام كانت تعتمد فى بنائها على القوة العضلية والجهد الجسمى، لذا فقد اعتبرت كبار السن الذين فقدوا جزءا كبيرا من لياقتهم البدينة عمالة زائدة وأناس ليس لديهم مكان بينهم وبالتالى وجب عزلهم والاستغناء عنهم ليفسحوا الطريق أمام الأكثر شبابا والأكثر قوة ، وعلى النقيض كان هناك من المجتمعات من يرى فى الإنسان المسن قوة عقلية ومجموعة من الخبرات والتجارب وكلما زاد عدد السنين زادت خبرة الفرد وأصبح أرجح عقلا وأصوب حكماً وقد وجدت النظرتان المجتمعيتان فى الدولة البيزنطية ولتوضيح أى النظرتين تبنت بيزنطة كان لابد من التعرف على صورة المسن وكيف تعامل المجتمع البيزنطى معه

أول صورة تواجهنا هى صورة الإمبراطور المسن فى مجال الحكم حيث استمر عدد من أباطرة بيزنطة فى الحكم فى تناغم مطلق على الرغم من كونهم مسنين مثل الإمبراطور جستين العظيم (518-527م)، وجستنيان الأول (527-565م) وأنستاسيوس (491-518م) ، وباسيل العظيم (867-886) وغيرهم لكن الصورة المناقضة لما سبق هى صورة الإمبراطور المسن حنا الخامس (1379-1391م) الذى قام بالثورة عليه حفيده حنا السابع باليولوجس سنة 1390م فى حركة انقلاب أخرج فيها جده وحل محله إمبراطوراً على القسطنطينية

وإذا انتقلنا إلى صورة المسن فى الجيش نلاحظ أن الجيش البيزنطى كان يبقى على كثير من القواد رغم تقدمهم فى العمر ولم يكن يقصيهم ويحيلهم إلى التقاعد إلا فى حالات نادرة مثل حالة ميخائيل استراتيجوس المسن والأحمق حينما اختير اسحق كومنين سنة 1057م خلفا له ومنح لقب قائد الجيوش الغربية نرصد صورة أخرى لوضع المسنين فى الجيش تؤكد عدم الاستغناء عنهم حيث أشار المؤرخون إلى أن الإمبراطور حنا السادس كتاكوزين (1347-1354م) كتب فى أحد التقارير أنه فى أحد المعسكرات أمر جميع الجنود بالسير على الأقدام مشيا واستثنى مائة جندى مسن لسنهم المتقدم وإن كانت هناك دراسة تشير إلى انتشار الإصابة بأمراض المثانة البولية بين الجنود المسنين الذين لايحالون إلى التقاعد وهناك حالات حدثت تحديدا فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى (820 – 829م) مؤسس الأسرة العمورية

وثمة إشارات فى المصادر البيزنطية تشير إلى صورة المسن فى حالات الزواج فعندما توفى الإمبراطور ثيودسيوس الثانى سنة 450م قامت أخته بولكريا والتى أخذت على نفسها ونذرت نفسها للعذرية، بالزواج الإسمى من المسن مارقيان لدعم توليه الحكم

ونرصد هنا أيضا حالة زواج شابة بمسن ، مثل حالة ماريا الآلانية التى اختارت أن تتزوج الإمبراطور المسن نقفوربوتنياتس (1078-1081م) نظير اتفاق يضمن أحقية ابنها الصغير قسطنطين دوقاس من زوجها السابق الإمبراطور المخلوع ميخائيل السابع من أجل أن تضمن حقه فى وراثة عرش الإمبراطورية

ولعل الصلة الأكثر وضوحا بين المسنين وسياسة بيزنطة نجدها فى المرأة البيزنطية المسنة فالملاحظ أن الأسر البيزنطية بشكل عام حرصت على رعاية الفقراء والمسنين والمعوزين وقامت المرأة المسنة تحديدا بدور بارز فى مجال العمل الخيرى والإنسانى وكانت للمرآة إسهامات خيرية قدمتها بكل حب وتواضع، وحيث إن هناك العديد من دور المسنين التى أنشأتها المرأة فى الدولة البيزنطية من أجل المسنين فهاهى زوجة القديس فلاريت الرحيم تقوم بتأثيث العديد من المستشفيات ودور المسنين فى بونتوس

ومن بين النســـاء اللاتى اشـــتهرن فى مجال العمل الخيرى كانت الإمبراطورة ثيوفانو زوجة الإمبراطور ليو السادس (886-912م) التى قامت بتوزيع جميع أموالها وأملاكها على الفقراء ، كما شيدت العديد من دور المسنين والأيتام والمستشفيات

وكل من القديسة ماريا الصغرى فى القرن التاسع والقديسة ثومايس الليسبوسية فى الفرن العاشر والقديسة إيرين رئيس دير كريسوبالانثون اشتهرن بالأعمال الخيرية وعلى رأسها رعاية المسنين والعديد من الأسماء الأخرى

وهناك علاقة مابين المســـنين ومفهوم التقاعد حيث يرى البعض أن مفهوم التقاعد – وإن لم يتفق العلماء على تعريف محدد – أن المتقاعد هو كل من ترك وظيفته سواء إجباريا بسبب بلوغه سن التقاعد أو إجباريا لأســباب أخرى ومن هذا المنطلق فإن تاريخ الدولة البيزنطية يعج بأســماء كثيرة – يطول ذكرها – لجأوا إلى تأثيث أديرة تقاعدوا فيها نهائيا حتى وفاتهم بعد أن تضاءل تأثيرهم فى المجتمع البيزنطى

وفى هذا السياق تبدو الأهمية الكبيرة لسياسة بيزنطة فى رعايتها للمسنين إذ تعكس صورة نابضة بالحياة عن مجتمع يهتم بالأرامل خاصة المسنين منهم، فقد كانت الأرامل اللاتى يتقدمن فى العمر يعشن مع أولادهن وربما يذهبن إلى الأديرة ويذهبن إلى دور العجزة المسنين كبديل ومنهن من كان يتلقى الرعاية فى مقابل التبرع النقدى أو بالممتلكات

وهناك إشارة واضحة وردت فى سيرة القديس " لازاروس " عن دخول عدد كبير من الأرامل من مســتويات اجتماعية مختلفة إلى دير القديس ميخائيل مالينوس حتى أنه يشـــار إليه بدير الأرامل والعجائز ، كما أن القواعد التى وضعتها إيرين ديوكاينا لدير كيشارتيمونى تشير إلى تدابير تتعلق برغبة أقاربها الإناث فى دخول الدير حال وفاة أزواجهن أو بلوغهن سن الشيخوخة، ومن خلال هذه الإشارات يمكن القول بوجه عام أن بيزنطة فى رعايتها للمسنين كان لها أدواتها وألياتها الخاصة

وثمة مقارنة ذات وجاهة بين المرأة المســـنة والفتاة العذراء عند الحديث عن عزلة المرأة البيزنطية فلم تختلف عزلة المرأة من حيث الطبقة الاجتماعية ومحل الإقامة فحســـب بل اختلف وفقا للمرحلة الســـنية فبالنســبة للطبقة الأرســتقراطية يمكن القول أنه فى الوقت الذى مارســت فيه المرأة المســنة قدرا من حرية الحركة لم تســتطع الفتاة العذراء أن تتمتع بهذه الحرية ولم تكن تغادر منزل الأســرة إلا بصــحبة حشــد من الخدم والحراس لحماية عذريتها وسمعتها، من هذا المنطلق يمكن القول أن ماهو كان متاحا للمرأة المتزوجة والمسنة لم يكن كذلك للفتاة العذراء

وليس كل المسنات فى الدولة البيزنطية كن يلتحقن بدور المسنين بل أن كثيرا منهن عشن فى بيوتهن حتى وفاتهن ويؤكد الرحالة الإيطالى فرانســـيســـكو فلغو Francesco Filelfo الذى زار القســـطنطينية فى الفترة من (1420 – 1427م) وتزوج من بيزنطية على أن العجائز الأرســـتقراطيات لم يكن يتحدثن مع الغرباء ولم يكن يغادرن بيوتهن إلا فى ظلام الليل وقد غطين وجوههن ويرافقهن عدد من الأقارب مع الخدم

ونظرية التعميم نظرية يملؤها الخطأ فمن غير الجائز تعميم موقف أو ظاهرة ما على المجتمع بأسره خاصة إذا ماتعلق الأمر بالنواحى الأخلاقية والسلوكية لمجتمع ما، ففى كل مجتمع توجد الفضيلة إلى جانب الرذيلة والمجتمع البيزنطى شـــأنه شـــأن كل المجتمعات به الصـــالح والطالح غير أن بعض مؤرخى الدولة البيزنطية تحدثوا كثيرا عن الســلوك الجنســى فى المجتمع خاصــة بين الطبقة الأرســتقراطية ولم يســتثنوا

المســـنين حتى أن المؤرخ نيفتاس خونياتس عند حديثه عن ســـلوكيات الطبقة الحاكمة الجنســـية شـــبه الإمبراطورية بالمرأة المغتصبة ووصف الأباطرة الزناة بأنهم "وطأوا الإمبراطورية "

ويتجسـد هذا الأمر فى حالة الإمبراطورة العجوز " زوى " التى رفضـت الاعتراف بسـنها الكبير ، واتخذت من " ميخائيل البفلاجونى " عشـيقا لها فى وجود زوجها رومانوس أرجيروس التى كرهته على حد قول المؤرخ ميخائيل بسـيليوس لانقطاعه عن ممارسـة الجنس معها لكهولته وهناك الكثير من المضـاجعات غير الشرعية التى لم تقف عند سن محدد ذكرها المؤرخ نيفناس خونياتس

ويبدو أن التقدم فى العمر لم يكن يؤثر على جمال كثير من نساء بيزنطة المسنات وهذا الرأى يحمل فى طياته الكثير من الصحة خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار وجود كثير من الروايات التى تعضد هذا الرأى، ففى أوائل القرن التاسـع أشـار نقتاس الأمنى كاتب سـيرة القديس فيلارتوس إلى أول مسـابقة لعروض زواج العرائس فى البلاط البيزنطى حيث ذكر أنه حينما جلس الجميع حول مأدبة الطعام التى أقامها الرجل العجوز المسن فيلاريتوس تكريما لرسل الإمبراطور قسطنطين السادس (780-797م) انبهر ثيوفانيس رئيس الوفد بأن يرى حســـن طلعة جميع أفراد الأســـرة الذكور من أبناء القديس وأزواج بناته طلب رؤية ثيوســـيبو Theosebo ربة الدار وزوجة القديس فلما أمرها زوجها بالحضور أصيب ثيوفانيس بالدهشة برؤية سيدة عجوز تحتفظ وتتمتع بجمال باهر على الرغم من أنها مسـنة الأمر الذى شـجعه على طلب رؤية بقية فتيات الدار

والمصـادر البيزنطية بها الكثير عن جمال البيزنطيات واحتفاظهن بهذا الجمال مع تقدمهن فى العمر حيث قدمت أناكومنين فى كتابها الألكسـياد العديد من الشـخصـيات المسـنات الجميلات مثل وصـفها لوالدتها إيرينى ديوكاينا ، وجدتها لأمها "ماريا البلغارية" وأنا كومنين نفســـها احتفظت بجمالها على الرغم من تجاوزها السـبعين كما أشـار جورج ثورنيكس فى خطابه الجنائزى إلى وصـف دقيق أقل مايقال أنه وصـف لفتاة فى ريعان شبابها

وأيضـا " زوية " التى كانت تتمتع بحسـن طلعتها على الرغم من أنها فى السـتين من عمرها إلا أنها كانت تبدو كطفلة غريرة بشعرها الذهبى وبشرتها الناعمة البضة

على أية حال هذا هو حال المرأة المســـنة فى الدولة البيزنطية وثمة رأى يؤكد قوة المرأة البيزنطية حيث يشير إلى أنها لم تكن تذرف الدمع على مصيرها وذلك بشجاعتها وحيويتها واقتدائها بالنساء المسنات المهيبات الجانب فى الكتاب المقدس

هـ الرعاية الصحية والنفسية للمسنين :

عرفت المجتمعات المختلفة منذ العصـور القديمة رعاية المسنين بدرجات متفاوتة لكنها لم تصـل إلى ماعرف مؤخرا (بطب الشـيخوخة) كتخصـص منفرد والاهتمام الذى أبدته الإمبراطورية البيزنطية يجعلها رائدة فى هذا الشأن

وهنا ينبغى الإشـــارة إلى أن موقف الدولة البيزنطية من رعاية المســـنين والخدمات التى قدمتها للمسنين لم يكن مبعثه فعل الخير فقط ، بل يمثل الالتزام من سكانها بتلك الرعاية، كما تلزم المسنين أنفسهم بالخضوع لها وذلك بما وضعته من نظم ولوائح منظمة لرعاية المسنين

كانت الدولة البيزنطية تقوم بالسعى إلى تخفيف العبء عن الناس من خلال تأسيس المستشفيات وبناء النُزل للحجاج الغرباء وملاجئ الأطفال وبيوت للأمومة وبيوت للمسنين، ومنازل للأمهات المسنين أيضا

انتشرت المستشفيات بشكل كبير ولسنا هنا بصدد عرض لتاريخ المستشفيات خلال التاريخ البيزنطى، ولكن يمكن فهم صورة المستشفيات البيزنطية من خلال مستشفى دير بانتوكراتور التى أسسها الإمبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين والتى تعد من أهم المؤسسات العلاجية التى تم إنشاؤها فى الإمبراطورية البيزنطية حيث كانت تضم خمسون سريرا موزعين على النحو التالى : عشرة أسرة لمرضى الكسور والجروح، وثمانية آسرة لمرضى العيون والأمراض الحادة، واثنى عشر سريرا للنساء، وباقى الأسرة للأمراض الأخرى العامة وكانت هذه الأسرة مقسمة إلى أجنحة مختلفة وملحق بكل جناح سرير إضافى من أجل الحالات الحرجة، بالإضافة إلى وجود ستة أسرة للمرضى الذين لا يستطيعون الحركة للحالات الطارئة

وهناك نصوص تعكس تسهيلات وميزات كرستها السلطات البيزنطية فى عنايتهم بالمرضى داخل المستشفى، فعن شكل الأسرة كان يتم تغطية الأسرة بحصيرة يعلوها وسادة فى فصل الصيف، كما يدعم كل سرير بعدد اثنين من البطاطين المصنوعة من شعر الماعز عند الانتقال إلى فصل الشتاء، كما كان كل جناح يضم عشرين قميصا تقريبا من أجل المرضى الفقراء أو المسنين ، وكان يتم كل فترة تغيير الملابس وأغطية السرائر التى لم تعد صالحة للاستخدام

أما الفرق الطبية فكان المستشفى يقوم على عدد كبير من الأطباء والطبيبات والمساعدين والمساعدات الذين كانوا يتمتعون بالخبرة العالية

وكانت المستشفى تُدَعَمْ بكل ماتحتاجه من المؤن الطبية اللازمة لمداواة المرضى سواء من المقيمين طريحى الفراش أو من المرضى الذين يأتون إلى قسم العلاج الخارجى حيث يتم منحه العلاج المناسب إذا تبين من خلال الكشف الطبى إنه ليس فى حالة تستدعى بقاءه فى المستشفى

والملاحظ هنا أن الإمبراطور حنا الثانى كومنين أنشأ دارا منفصلة لرعاية المسنين بدير بانتوكراتور مجهزة لاستقبال أربعة وعشرين من المسنين الرجال ، وكانت تشترط هذه الدار أن يكون هؤلاء ممن يعانون من أمراض الشيخوخة المختلفة، وكانت هناك أولوية للمسنين المرضى والمقعدين والمصابين بالعرج والمبتور من أجسادهم أعضاء

كذلك كان هناك تشديد بعدم السماح لآى شخص غير مريض وغير مسن إدراج اسمه فى قوائم المسنين بالدير مهما علت رتبته أو مكانته وينسحب ذلك على أفراد الأسرة الحاكمة ورجال الدين وغيرهم من القادرين على دفع نفقات معيشتهم ، ومن يخالف ذلك يدخل فى دائرة الاتهام والإدانة

وهناك دار أخرى للمسنين أنشأها السباستوكراتور " اسحق كومنين " عرفت باسم " كوسمورزويترا " قامت على رعاية المسنين وكان المستشفى مجهزا بكل احتياجاتهم بل إن المؤسسة من حرصها على راحة المسنين كان رئيس الدير فى حالة تعرض أحد المرضى المسنين بانتكاسة أو حادثة فكان يوجب عليها تغيير لوازم الفراش على الفور وبصورة يومية حتى لا يتأذى المرضى نفسيا

كما كان يلزم رئيس الدير بتوفير كل ما يحتاجه المرضى المسنين من الاحتياجات الطبية المختلفة وكذلك توفير الأدوية المناسبة للمرضى ومستلزمات الدار من الأخشاب للتدفئة والزيت لإضاءة المصابيح والطعام المطهو

ولقد أولت الدولة البيزنطية عناية خاصـــة للعمليات الجراحية منذ البداية المبكرة والتى اســتفاد منها كبار السن

والمطلع على التيبكا يجد التشــديد على أن يكون فى الدار طبيب متخصــص فى الكســور والعظام ويشترط عليه البقاء على الدوام هو والمجموعة المعاونة له

وحرصاً من مؤسسة الدير على تحقيق المنفعة لكل المسنين فقد نص التيبكون على أنه فى حالة شفاء أحد المرضــى وقرر مغادرة الدير فعلى رئيس الدير أن يأتى بمن يحل محله على الفور حتى لايترك سـريرا واحدا خاليا دون استفادة أحد منه

وقد أشـار المؤرخ زانوراس إلى كثير ممن تقدموا فى العمر وفقدوا القدرة على العمل ، بل منهم من وجد صعوبة فى المشى ويحتاجون إلى مساعدة ذويهم ، كما أشار المؤرخون إلى انتشار أمراض الشيخوخة المختلفة كالتهاب المفاصل وأمراض الروماتيزم والنقرس وأمراض العيون ، ولذلك سعى الأطباء البيزنطيون إلى تقديم نظام غذائى محدد للمسـنين فى شـكل حمية غذائية، كما أوصـوا المجتمع البيزنطى بشـكل عام إلى توفير الغذاء المناسب للمسنين والحمامات الدافئة والتدليك بالزيت والمشى وإعطاء الأغذية بكميات قليلة

فالمصـادر الطبية تشير إلى أن سبب وفاة الإمبراطور أندرونيقوس الثانى باليولوجوس وهو فى سن متقدم (74 سنة) بسبب مخالفة غذائية حيث تناول فى العشاء مأكولات بحرية مع ماء مثلج لم تتحمله مَعِدْة العجوز طبقا للمفاهيم الطبية فى ذلك الوقت

أما عن كيفية تعامل الدار مع الحالات المرضية من المسنين فقد أفاد التيبكون بأن هناك قساً مسئولا عن هذا الأمر فإذا لاحظ شكوى من أحد المسنين من مرض معين يقوم على الفور بإبلاغ المسئول المناط له العناية بالمرضــى مع الفريق المصــاحب له لتجميع المعلومات الطبية عن الحالة المرضــية وتقديمها للفريق الطبى المتخصص فى هذه الحالة، ويلقى الرعاية الكاملة حتى يتم الشفاء له ولكن إذا ماكان مريضـا مرضـا خطيرا فيحتجز بالمستشفى لتلقى العلاج، يعود بعدها إلى دار المسنين بعد المعافاة، كما أن جميع نزلاء الدار من المسنين لهم الحق فى الاستحمام فى حمام المستشفى الملحق بالدير مرتين شهريا

أما عن مخصصات المسن فكانت متنوعة حيث يتلقى الخبز والنبيذ والبازلاء والجبن وزيت الزيتون و (هيبربيرتين) لشراء الملابس، هذا بالإضافة إلى توزيع الصدقات والأعطيات على نزلاء الدار والتى تأتى عليهم فى وقت المناسبات والأعياد

كما أن دراسـة النصـوص التاريخية التى كتبت باليونانية فى وقت مبكر تؤكد أن الأطباء البيزنطيين لهم دور كبير فى تقديم الأســاليب العلاجية والتقنيات الجراحية فى أمراض الأذن التى كان يعانى منها كبار السـن مثل (التهاب الأذن والتمزق فى طبلة الأذن ونقص السـمع والدوار وطنين الأذن)، وكانوا يمارسـون العديد من العلاجات الجراحية المتصـلة بطب الأنف والحنجرة وتجاربهم الشـخصـية كان لها دور كبير فى إثراء المعرفة الطبية الأوربية فى القرون الوسطى

كما ســاهم الأطباء البيزنطيون فى طب الأمراض الجلدية المختلفة كتســاقط الشــعر والجذام وأولو اهتماما " خاصـا " لموضـوع مستحضـرات التجميل وإزالة التجاعيد وترطيب البشرة وصباغة الشعر وأقبل المسنون عليها بشكل كبير

ورغم أن الروايات السـابقة تشـير إلى تبنى بيزنطة الرعاية الصـحية للمسـنين، فثمة روايات أخرى

يوحى ظاهرها بأنها تبنت أيضا الرعاية النفسية، فقد أكدت الدراسات الحديثة على وجود علاقة موجبة بين الرضا عن الحياة وتقدير الفرد لذاته، كما أكدت تلك الدراسات فى تعريفها للوحدة النفسية بأنها عجز فى المهارات الاجتماعية وفى علاقة الفرد الاجتماعية مما يؤدى إلى الاكتئاب أو التفكير فى الانتحار أو القلق أو أعراض سيكوماتية مثل الصداع والتعب وضعف الشهية مما له أكبر الأثر على الأداء السيكولوجى الذى يتطلب تدخلا للمساندة الاجتماعية

يؤكد ذلك إشارة بعض الدراسات إلى أنه كان هناك ممرضات بيزنطيات تخصصن فى تمريض المسنين، وهؤلاء الممرضات تمرسن على طب الشيخوخة، بل كان الذين يشتغلن بالرعاية الصحية والنفسية وتمريض الشيوخ فى تحديث دائم لمهاراتهن لاعتمادهن على قاعدة معرفية تتيح لهن التزود بالمعلومات والأدوات بشكل دائم

وتحت مظلة الرعاية النفسية والروحية لجأت بيزنطة عند تقديمها لهذه الرعاية إلى إقامة الدار بالقرب الشديد من الكنيسة ليتمكن المرضى من سماع التراتيل المقدسة، كما تم تعيين كاهن لهؤلاء لأداء الصلوات الصباحية والمسائية وسماع اعترافات المرضى ، وإن كان قد ثبت تاريخيا أن البيزنطيين بشكل عام بما فيهم المسنين من أجل تخفيف العبء النفسى كانوا يلجأون إلى القديس أو الساحر أو المنجم

وفى حالة وفاة أحد الأفراد فقد اجتمعت القواعد الديرية على ضرورة إقامة الطقوس الجنائزية على روحه ثم يدفن فى المكان الذى يختاره هو أو هى

وإن كان الإمبراطور قنسطنطين مع ميلاد المستشفيات فى بيزنطة فى وقت مبكر من القرن الرابع الميلادى قد أقام نظاما بعمليات دفن الموتى من سكان القسطنطينية

خاتمة :

ربما الجهد والريادة الكبيرة التى أبدتها بيزنطة فى رعاية المسنين دفعت رجلا مثل روجربيكون فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى أن يناشد الدولة أن تنشئ رصيدا للإنفاق منه على الفقراء والمرضى والطاعنين فى السن، وإن كان القسط الأكبر من هذا العمل تُرك للكنيسة

والمنشآت المختلفة من مستشفيات ودور مسنين استمر وجودها فى الدولة البيزنطية حتى فترة متأخرة من العصر البيزنطى، فالرحالة الفرنسى " برتاندودى لابروكيه " الذى زار القسطنطينية فى القرن الرابع عشر الميلادى وجد أن المدينة مازال بها العديد من بيوت المسنين والمسافرين والغرباء

كما ذكر أندرونيقوس كاليستوس الذى كان شاهد عيان على سقوط القسطنطينية سنة 1453 على أن كثيرا من المؤسسات الاجتماعية كالمستشفيات ودور المسنين والأيتام ومنازل الفقراء وغيرها من المبانى التى تفخر بها العاصمة قد تحطمت، ذلك أن القسطنطينية قد تمتعت بشهرة واسعة بأنها أم للفقراء والأيتام ومكان راحة المسافرين وملاذ للأرامل ورعاية للمسنين

وأخيرا يمكن القول أن من وفاء الواجب الذى تفرضه شرائع الإنسانية المختلفة العناية بكبار السن وتقديرهم واحترامهم ومما قدمته الدولة البيزنطية فى هذا الشأن تكون قد رسمت منهجا علميا فى رعاية المسنين يمكن استدعاؤه ليكون عينة للحاضر ، وكانت سباقة فى هذا الميدان ومرجعا هاما لايمكن تجاهله فى العصور الوسطى

قضية المواطنة و حقوق الانسان

أولاً : مقدمة :

المواطنة كلمة مستحدثة في اللغة العربية اختارها المترجمون للتعبير بها عن كلمة Politeia اليونانية وCitoyennete الفرنسية وCitizenship الأنجليزية .[1]

إذا فالمواطنة والمواطن في العربية من الوطن وهو موطن الإنسان ومحله وبالتالي فإن الكلمة ترتبط بالهيكلية البشرية والجغرافية لكيان محدد لدولة ما.[2] والخلاص المسيحي في مجمل معناه هو التحرر من الخطر أو المعاناه كما تعني كلمة الخلاص التحرر الروحي والأبدي كما تحمل الكلمة من معاني الإنتصار والصحة والحفظ كما تعني أيضا الدخول في ملكوت السماوات كما تشير الكلمة إلى الحرية الجسدية. [3]

أما عن مصر والمصريين فقد فقدوا نفوذهم السياسي على وطنهم منذ الغزو الفارسي سنه 525 ق.م.[4] وكان الشعب المصري أشد الشعوب قهراً وبؤساً تحت حكم الاحتلال المتعاقب وقد كان المواطن المصري يجيء مجتمعياً بعد المواطن الفارسي واليوناني والروماني واليهودي وكل أجنبي في بلاده بل أن بعض الأجانب كان لهم حق الرعوية أى (المواطنة) إلا المصري الذي لم يكن له حقوق غير حق الذل وأنتاج الغذاء وزخرف الحياة للغالبين. وبعد أن إلحقت مصر بالقسم الشرقي البيزنطي من الإمبراطورية الرومانية (284 – 642 م) كان الأنفصال بين الحكام والمحكومين كاملاً دينيا وعنصريا ولغويا وحضاريا .

لقد دخلت المسيحية مصر والتأم المؤمنون المحكومون في جماعة منظمة والكتاب المقدس أحتفى بالأنسأن وأحد الأعمدة الذين قاموا بنشر المسيحية يتمسك بمبدأ المواطنة والوطن ويقول " أنا روماني" وهو القديس بولس.[5]

كان من الطبيعي أن يحب قاطنوها هذه الأرض أرض مصر كيف لا والكتاب المقدس في سفر التكوين[6] حينما اراد أن يمدح أرضاً قال عنها " كجنة الرب كأرض مصر".

ماذا يريد البحث :

هذا البحث وعنوانه جاء للبحث عن الإجابة على عدة أسئلة ، هل بحث المصريون في العصور الوسطى عن المواطنة فلم يجدوها في الجغرافيا ولا البشر ولا الحضارة ولا التاريخ ووجدوها في الدين؟، هل تخلي المصريون عن مبدأ المواطنة ورضخوا للمحتل البيزنطي في ظل تعاليم بولس المنسوبة الى يسوع بإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله واذا ضربك على خدك الايمن أعطيه خدك الايسر وأحبوا أعداءكم وأحسنوا لمسيئكم".[7]

كان المصري في العصر البيزنطي يبحث عن خلاصين، خلاص ديني روحي وخلاص تحررى من المحتل البيزنطي فهل فضل الخلاص الديني على الخلاص التحررى؟ لأن الدين هو الأنسب للتواشج والتعايش، هل عانى المصريون من المسافة التاريخية بين مفهوم المواطنة التراتبية المقرونة بالسلالة والطائفة والدين، والمواطنة التي تستمد هويتها من الفرد المجرد والذي يعتبر الخلية الحيوية للمجتمع، هل كان المصري يخشى السلطة إلى الحد الذي لا يستشعر في نفسه القدرة على نقضها وذكر أخطائها علنا ؟ هل شعر بعجزه على تغيير الواقع؟ ، هل فضل المصرى فى العصر البيزنطى أن يسلك مسلكاً تهادنياً وتصالحياً مع أصحاب النفوذ السياسي؟ هل تأخرت حركة اليقظة والبعث القومي في مصر طيلة العصر البيزنطي ولم يكن لها وجود وهل كانت تحتاج شخصية زعيم يتحقق فيه الأماني الوطنية !؟ افتقدت مصر وجوده في ظل السيادة الرومانية والبيزنطية .

لم يستطع البحث التخلي عن قيود أنه يتعامل مع شخصية دولة عجيبة وبالتالي فإن البحث كان لابد أن يراعى عند تعامله مع الشخصية المصرية في الحقبة البيزنطية أنه يتعامل مع شخصية مركبة شرقية متوسطية إفريقية فرعونية شعوبية كل ذلك لاكتشاف ذاتها في العصر الروماني البيزنطي.

كما كان لابد من رصد الدور النضالي للمصريين، فهل تحقق على المستوى القومي الوطني في الجانب الثقافي الفكري الروحي فقط أم علي المستوى النضالي الاجتماعي التحرري المعتاد والمتعارف عليه من ثورات وقتال ومقاومة؟

ثانياً : المعنى الإصطلاحي للمواطنة :

برزت الإرهاصات الأولية لمفهوم المواطنة مع ظهور دولة المدينة اليونانية فالحقوق والواجبات تمنحه حق المواطنة.[8] وبالتالي فإن مفهوم المواطنة أو ما يدل عليه من مصطلحات عبر التاريخ اقترن بإقرار المساواة للبعض أو الكل أى إقرار حق المشاركة الحرة للأفراد المتساويين . [9]

ومن هنا فإن أقرب معني لمفهوم المواطنة المعاصرة في التاريخ القديم هو ما توصلت إليه دولة المدينة عند الإغريق ، والذي شكلت الممارسة الديمقراطية لأثينا نموذجاً له [10]

والحق أن مفهوم المواطنة من المفاهيم الأساسية في حياة المجتمعات وله أبعاد مختلفة وتطورات حادثة مستحدثة حيث يستبطن بداخله تصورات الفرد والجماعة والرابطة السياسية ووظيفة الدولة والقيم الإنسانية وهذا المفهوم مفهوماً حياً ومتحركاً في إطار ضرورة تاريخية مستمرة ما أثار صعوبة واضحة في إيجاد تعريف مانع وجامع وربما نستوضح فكرة الوطن والمواطنة عن طريق البحث في السياق التاريخى وأصول الكلمات وماهية أصولها والاختلافات التي طرأت على هذه المصطلحات وطريقة ارتباطها بالثقافة بشكل عام وإن كان مبدأ المواطنة كمفهوم تاريخي مفهوم شامل ومعقد له أبعاد عديدة ومتنوعة يتأثر بالتطور السياسي والاجتماعي وبعقائد تلك المجتمعات وبقيم الحضارات.

فإذا بحثنا عن المواطنة والمساواه فى الكتاب المقدس نجد أن كلمة المواطنة وردت في كلمة (الرعية – الرعوية) على لسان بولس في عدة مواضع حيث استخدمها في تعريف الوجود المسيحي في المجتمع الروماني نفسه في رسالته الى كنيسة أفسس "فلستم إذا غرباء ونزلاً : بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله".[11] كما استخدمها بولس ليمنع جلده بدون محاكمه "أيجوز لكم أن تجلدوا إنسانا رومانيا غير مقضي عليه".[12] بل دفع بأنه ولد وورث حق المواطنة وهو ما أعطى بولس الحق في أن يقدم شكواه و يرفع دعواه لدي قيصر.[13]

واذا كانت المواطنة مظلة لفكرة المساواة فالملاحظ أن الكتاب المقدس تعهد بفكرة التمييز والتفريق وعضده بسند شرعي فاليهود رددوا فكرة الشعب المختار تقول التوراة "لأنك أنت شعب مقدس للرب ألهك وإياك قد اختار الرب ألهك لتكون له شعبا اخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" .[14]

فهل كان من الصعب تحقيق فكرة المواطنة التي تتضمن فكرة المساواة في المسيحية يقول القديس بولس: "أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعده في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمه العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح"[15] ويقول في التفريق بين الرجل والمرأة: "أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل هو رأس المراة". [16]

ولفظ المواطنة غائب عن المعاجم العربية القديم المتداولة [17] وإن كان مصـــطلح المواطنة بأصـــوله مشـــتق من الوطن، والوطن في لســـان العرب[18] هو: الوطن المنزل لتقيم به وهو موطن الإنسان.

وبالتالى فأننا لا نلاحظ في اللغه العربية القديمة إرتباط الوطن بالمشاعر بقدر إرتباطه بالمكان ضمن حدود جغرافية ومعطيات سياسية وباختصار فإن المواطنة هي ذلك الجهد الذي يبذله الفرد في الإنتقال من خصوصيته الطبيعية الى المستوى الكلي والشمول. [19]

والمصطلح يستخدم للدلالة على تلك الحالة التي يعد فيها الفرد مواطنا كونه يعيش في رحاب دولة معينة و ينتمي إليها ويخلص لها ومن ثم يحظي بحمايتها ويتمتع بعضويتها سواء أكان ذلك بحكم المولد او بحكم اكتساب الجنسيه [20] وبالتالي فالمصطلح يحمل مضمونا حضاريا أنتجه الحراك التاريخي الاوروبي في قرونه الاخيرة.

وتشير أيضا دائرة المعارف البريطانية[21] إلى أن المواطنة بأنها علاقة بين فرد ودولة كما يحدوها قانون تلك الدولة وبما تتضمنه تلك العلاقه من واجبات وحقوق وهي أيضا تدل ضمنا على مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات، فضلا على أنها تسبغ على المواطن حقوقاً سياسية مثل حق الأنتخاب وتولى المناصب العامة. وتذكر أيضا الموسوعة الدولية[22] أن المواطنة هي عضوية كاملة في الدولة وأن المواطنين لديهم بعض الحقوق مثل حق التصويت وحق تولى المناصب العامة وكذلك عليهم بعض الواجبات مثل واجب دفع الضرائب والدفاع عن بلدهم. وأخيراً فإن المواطنة تعني أيضا مشاركة المواطنين في تدبير شئون مجتمعهم[23]

وعلى أية حال فإن قراءة مفهوم المواطنة كمصطلح وما يقاربه من مصطلحات في الأدبيات السياسية والفكرية والتربوية نجد أنه اقترن بالنسبة للنموذج المصري في العصر البيزنطي بحركة النضال من أجل العدل والمساواة والإنصاف والتحرر فهل نجح المصريون في تحقيق الفضاء المشترك في ظل المد التاريخي في العصر البيزنطي وفي ظل إستحضار الغيرة الدينية في مجتمع مركب مسيحيون بمذاهب مختلفة ووثنيون وعناصر كثيرة أخرى، وإذا كان الدين عنصر فرز أو تمايزاً ثقافياً فإن قيام فضاء مشترك بين أفراد المجتمع مبني على قاعدة العدل والمساواة للأفراد والجماعات كان كفيلاً بتحقق المواطنة التي من شأنها طرد المحتل البيزنطي.

ثالثاً : المعني الاصطلاحي للخلاص المسيحي :

وردت كلمة الخلاص في مصادر وكتابات المسيحيين بمعاني تشبه المعاني اللغوية وإن كان هناك زيادة عليها في معاني تصب في الفكرة الخاصة بعقيدة الخلاص المسيحي فالخلاص في اللغة : خلص الشيء - الفتح - يخلص خلوصاً اي صار خالصاً وخلصته من كذا تخليصاً أى نجيته فتخلص ، وعلى هذا فلفظ خلص يحمل معنى التخليص والخلاص : مصدر بمعنى السلامة والنجاة[24]

أما المعنى الإصـــطلاحي للكلمة فهو يقف على الخلاص من الخطيئة والتحرر من أثارها وأصبح هذا المعنى لازما للخلاص: "إذ قال الملاك عن العذراء فستلد إبناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم"[25]

وقد وردت كلمة خلاص في الكتاب المقدس بمعاني مختلفة منها كالخلاص بمعنى الإنقاذ من العدو وقال شاول: "لا يقتل أحد لي هذا اليوم لأنه في هذا اليوم صنع هذا الخلاص العظيم".[26] وفي المزمور التاسع والستين "لأن الله يخلص صهيون ويبني مدن يهوزا فيسكنون هناك ويرثونها"[27] وخلاص أيضا من ضيقات الحياة " لماذا أنت منحنية يا نفس ولماذا تئنين في ترجي الله لأني بعد

أحمده خلاص وجهي وإلهي"[28] وخلاص بمعنى الأمن والأمان والحماية : غني داود " إله صخرتي به أحتمى ترسي وقرن خلاصي ملجإى ومناصي فخلصي من الظلم تخلصني"[29]

وكلمة الخلاص وردت في الكتاب المقدس بمشتقاتها زهاء خمس وأربعين وأربعمائة ، وفيما يخص العهد الجديد فقد وردت مائة مرة منها أربعة عشر مرةٍ عن الشفاء من المرض وإخراج الشياطين ، وعشرون مرةٍ عن الأنقاذ من الموت والمخاطر وستة وستين مرة بالمعنى الروحي.[30] وفي العهد القديم يراد بالخلاص النجاه من الشر أو الخطر أو العدو فقال موسى للشعب لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه اليوم.[31] أما في العهد الجديد فقد اتجه المعنى الي اتجاه أخر وهو أنقاذ الخطاه بالايمان بيسوع المسيح [32] لذلك فإن معني الخلاص ينسحب على الخلاص الديني والتحرري في معناه الشمولى.

رابعاً : صور الخلاص الروحي والتحرري في مصر البيزنطية :

هناك طائفة من المؤرخين المحدثين[33] الذين قدموا للمكتبة العربية مؤلفات ضافية في إبداع وأصالة ترى أن الأيديولوجية التي سادت المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى أيديولوجية ثيولوجية لعب فيها الدين دوراً رئيسياً في صياغة أخلاق المجتمع وفي تشكيل العلاقات الاجتماعية وبخاصة العلاقات بين المحكومين والحاكمين كما أن الدين كان عامل تجميع قومي وطني ضد العدو الأجنبي ، أي أن الكنيسه المصرية ورجالها هم المعبرون عن صوت مصر وأن الكنيسة المصرية أصبحت لدى المصريين رمزاً للاستقلال القومي في غياب الاستقلال السياسي مع مراعاة أن مصر في تلك الحقبة كانت ولاية مستعمرة وتابعة لدولة عظمي .

كل ذلك بعد أن نجحت المسيحية في امتصاص التراث الوثني رويداً رويداً[34] وأول عنصر من عناصر المقاومة من وجهة نظر نفر من المؤرخين هو الرهبنة التي سلكها الشعب المصري والتي اتخذت في صورتها الأولى والتي كانت عملاً من مبتكرات مصر المسيحية ونظاما مصريا أصيلاً ثلاثة أشكال توضحت جميعا في مصر أخريات القرن الثالث وأوائل الرابع الميلادي شكلاً عرف بالرهبنة الإنفرادية والتي وضعها القديس المصري أنطوني (251 – 356 م), والشكل الثأني عرف برهبنة الشراكة والتي أسسها القديس باخوميوس (290 – 348 م) والشكل الثالث عرف بالحياة الشبه تنسكية[35]

وعلى الرغم من أن الرهبنة تعنى الزهد والتنسك أو الإنعزال والإنفراد بقصد التبتل والعبادة مع أختيار الفقر طوعاً كما تعني تطهير الروح واحتقار الجسد والاعراض عن شهواته[36] فقد أعتبر فريق من العلماء أن هذه الرهبنة هي صورة من صور المقاومة للاحتلال البيزنطي وهي وإن كانت مقاومة سلبية فقد لجأ اليها المصريون كوسيلة للاحتجاج والمقاومة للمحتلين الرومان[37] وبالتالي فإن هذا بدل أن يصب في الخلاص الروحي فأنه صب بحسب رأيهم في الخلاص التحرري.

وهذه الظاهرة عرفت بظاهرة خروج المصريين إلى الصحراء والإعتصام بها هروباً من الاضطهاد الديني الذي كانت تمارسه السلطات البيزنطية الحاكمة وكان المصري الذي يلجأ ويفر اليها يعرف ب " الهارب " او " المختفي anachoretes " أى الشخص المنسحب فراراً بدينه وهروبا من الاستبداد السياسي والعسف الاقتصادي.[38]

والحق أن العالم المسيحي كله وقف على أسرار هذه الحياه النسكية وأنتشرت الرهبنة من مصر الى خارجها.[39] وكانت هناك لهفة في العالم المسيحي الذي عرف الرهبنة عن طريق مصر الى الحياه النسكية وهي التي دفعت القديس اوغسطين كما سجل في اعترافاته الى أن يطلق هذا العالم

وأن يهب نفسه تماما لله[40] والشاهد في هذا الأمر يجد أن هذا الطريق صب في الخلاص الروحي اكثر مما صب في الخلاص التحرري الثوري .

إذا فمن الواضح أن الدافع الرئيسي لأنتشار الحركة الرهبأنية في مصر هو إضطهاد الأباطرة الرومان وثنين كانوا أم مسيحيين وكانت الرهبانية عوضاً عن الشهادة.[41]

كيف لا وقد ملأت الكنيسة عقول اتباعها بأن موطنهم الاصلى هو السماء وأنهم مواطنون في مملكة الله الآتية وبالتالي فقد كان موقف مسيحي مصر من الإمبراطورية البيزنطية وتعسفها هو الفرار إلى الصحراء بحثاً عن الخلاص الروحي لقد كان المسيحي يعطي المسيح ولاءه وليس القيصر ويجل أسقفه وليس الحاكم لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق الولاء للدولة .[42] لكننا لا يمكننا إهمال الرأى الذي يقول أن الرهبان المصريون أصبحوا يشكلون قوة ضخمة أو جيشاً على حد تعبير أحد المؤرخين استخدمه الاساقفة السكندريون كثيراً في مناوأة سلطان الأباطرة البيزنطيين.[43]

يرى بعض المؤرخين أيضا أن ما قدمته مصر في حركة المجامع المسكونية يصب في تاريخ مصر القومي ويصب في خلاصها التحرري من الإمبراطورية البيزنطية[44] على الرغم من أنه كان نشاطاً دينياً روحياً خالصاً.

وأهمها مجمع نيقيه الذى عقد سنه 325م والذي دار حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام فحتى القرن الرابع كانت الكنيسة المصرية تتبنى رأي أريوس حول أدمية المسيح وحينما تبنت بيزنطة على رأسها الإمبراطور قنسطنطين مذهب اريوس أيضا فقد حدث إنقلاب وتغيير لدي الكنيسة المصرية حيث أجمع الرهبان على التخلي عن مذهب أريوس ورفض تفسيراته وأنتهى هذا الصراع بإنتصار الحزب المصري ممثلا في كنيسة الإسكندرية التي اختارت البطريرك أثناسيوس رافعة راية الطبيعة الواحدة للمسيح أو المونوفيزيتية ضد المحتل البيزنطي وكنيسته القسطنطينية التي كانت تتبنى المذهب الأريوسي الذي كان يرفع راية إزدواجية طبيعة المسيح[45] واعتبر هذا مظهر من مظاهر المقاومة والنضال والثورة المرادف للخلاص التحرري .

كذلك أنتصرت الكنيسة المصرية في مجمع أفسس سنه 431م على الكنيسة البيزنطية[46] في دحض رأي كنيسة القسطنطينية من أن الجزء الالهي من المسيح لم يولد من العذراء وأن العذراء أم المسيح الأنسان فقط.

وهذا الأمر أزعج بيزنطة وبطاركتها في محاولة استقلال الكنيسة المصرية مما دفعهم لعقد مجمع خلقدونية سنه 451م الذي أنعقد بأمر الإمبراطور مرقيان (450 – 457 م) لتعريف طبيعة المسيح وفي هذا المجمع كان هناك جبهتان الأولى مصرية وعلى رأسها البطريرك ديسقورس وتقول بمبدأ الطبيعة الواحدة والجبهة الأخري بيزنطية رومانية تقولان بمبدأ الطبيعتين الإلهية والإنسانية وأنتهى المجمع بإنتصار المحتل حيث تم عزل ديسقورس وهو البطريرك الوطني ونفيه في سنه م451 ميلادية وقامت الحكومة البيزنطية بتعيين أحد أعوانها بالقوة المدعو بروتيريوس (452 – 457 م) خلفا له على الكرسي السكندري [47]

كان مجمع خلقدونية نقطة تحول بين خلاص المصريين الروحي وخلاصهم التحرري بين المصريين المغلوبين على أمرهم والبيزنطيين الحاكمين بأمرهم وحين شكل المصريون لجنة قومية دينية ردت على هذا الإجراء بانتخاب مصري بطريركا معارضاً وهو تيموتاوس خلفاً للبطريرك المعزول غير أن البطريرك البيزنطي قام بعزله قهراً ومطاردته. [48]

أدي ذلك الى إنتفاضة شعبية في الاسكندرية ترقى الى درجة الخلاص التحرري الثوري ودخل أهل الاسكندرية في صراع وشغب مع القوات الإمبراطورية عند سماعهم نبأ وفاة الإمبراطور

مارقيان حيث قتلوا البطريرك البيزنطي بريتوريوس في مكان العماد ويشير الى ذلك أحد الاساقفة بقوله في عهد قنصلية دينامنيوس تملك شعب الاسكندرية وشعب مصر جنون عجيب شيطاني فالكبار والصغار والأرقاء والأحرار والرهبان والكهنة وسكان البلاد الوطنيين الذين عارضوا مجمع خلقدونيا كل هؤلاء فقدوا عقولهم وقدرتهم على التعبير ولقد اتخذ المصريون المشكلة الدينية كمتنفس من شعورهم بالرفض للحاكم البيزنطي .[49] وبالتالي فإن المسألة لم تعد قاصرة على الخلاف المذهبي وإنما أصبحت مسألة خلاص روحي وتحرري ضد ثيوقراطية ونفوذ بيزنطة السياسي وهي في نهاية الامر صورة من صور حركات الاستقلال والخلاص التحرري وأن كان لم يعم كل أنحاء مصر.

وفي سلسلة نشاط المصريين للخلاص الروحي تظهر شخصية الأنبا شنودة الذي أعتبره كثير من المؤرخين باعث حركة إفاقة الوعي القومي والقديس شنودة ابن فلاح فقير ولد بالقرب من بانوبوليس (أخميم) في صعيد مصر في عصر الإمبراطور قسطنطين.[50] إعتنق الأنبا شنودة المبادئ الرهبانية في رعاية عمه مؤسس الدير الابيض سنه 350 م وخلفه سنه 383 م في رئاسة هذا الدير وظل فيها 66 عاما طوالاً مكنته من تدعيم حركته وفكره على الأسس التي رسمها.[51]

قام الأنبا شنودة بوضع سلسلة من القوانين والتنظيمات الديرية تشبه قوانين القديس باخوميوس لكنه طورها حتى تتلاءم مع عصره وكان له نشاط كبير مع الرهبان والراهبات حيث شجعهم على ممارسة الرهبانية التوحيدية أي حياة العزلة والإنقطاع للعبادة والعمل في جوف الصحراء[52] وكل هذه المفاهيم كانت في مجملها تصب في الخلاص الروحي.

ولسنا هنا بصدد عرض دوره الكبير في مقاومة الوثنية ودوره في المجامع الدينية ودوره الاجتماعي[53] غير أن مقتضيات البحث تتطلب رصد دوره في الخلاص التحرري والروحي فالملاحظ أن الفترة التي عاشها القديس شنودة هي قرابة قرن من الزمان تولى فيها حكم مصر ما يقرب من [44] والياً من قبل الحكومة البيزنطية عانى المصريون خلال تلك الفترة من الظلم والتعسف ومن قسوة كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة الأرستقراطية أصحاب النفوذ والسلطان والثروة الذين عاشوا بعيداً عن الشعب يرفلون في حياة تطفح بروح الترف والبذخ والنعيم يملكون مساحات شاسعة من الاراضي أما غالبية الشعب فتكدح ليل نهار من أجل إرضاء هؤلاء الساده فضلاً عن الضرائب التي كان يستخدم جامعيها القسوة مع أفراد الشعب.[54]

كانت الصلة وثيقة بين القديس وأفراد شعبه الذين داوموا التردد عليه في ديره حيث كشفوا له عن جراحهم وما يعانو على يد الحكام البيزنطيين وأتباعهم.[55] ويرصد البحث جهوداً للقديس تصب فى الخلاص التحرري كالتنديد بالحكام البيزنطيين وإبراز مفاسدهم وتبصير مواطنيه بحقوقهم ودفعهم للمطالبة بها مستغلا قدرتة على الكتابة والخطابة وفي ذلك يقول: "سلاطين تلك الأيام يجمعون أموالا كثيرة ظلما وقد ينسون الطلبات والصلوات ويرفضون بيعته لأجل ما عليهم من الجور الويل لكل الرؤساء ومقدمى الشعوب فى كل المدن وجميع القرى.[56]

استشعر حكام بيزنطة مدى خطورة القديس شنودة في إيقاظ الشعور الوطني ضد بيزنطة ما نقراءه في لغة الخطاب الممزوجة بامتصاص غضب القديس في رسالة الإمبراطور البيزنطي ثيوديسيوس (408 -450 م) ونص هذه الرسالة على النحو التالي: "أنا ثيوديسيوس الصغير ... يكتب ويسال الأب الطاهر أنبا شنودة إن كنا مستحقين قدومه لنا لنغتنم بركتك وتصلي علينا لأن المملكة كلها منتظرة مجيئك أيها الأب القديس ونسألك ألا تتوانى عن الحضور إلينا فنحن عطاشا إلى نظرك ..... اذكرنا بصلواتك أخلص بالرب والسلام".[57] على ما يبدو أن القديس شنودة استشعر أن

الوقت الحالي لا يصلح للخلاص التحرري لذا اكتفي بالإعتذار للسفارة التي حملت الرسالة وطلب منهم أن يبلغوا الإمبراطور إعتذاره ودعا الله أن يثبته على كرسيه كثائر الملوك الاتقياء [58]

بذل القديس شنودة أقصى ما في وسعه من أجل إيقاظ أبناء شعبه وبعث الروح الوطني القومي فيهم حتى أعتبره البعض علما من أعلام إفاقة الوعي القومي[59] في حين شبهه أحد المؤرخين المحدثين بالشعلة الملتهبة التي أشعلت النيران في قلوب المصريين ودفعتهم إلي الخلاص من أعدائهم.[60]

ومن الخطوات الجريئة التي قام بها المصريون والتي اعتبرها البعض أنها تصب فى المفهوم الوطني والذاتية المصرية إعلانهم تخليهم عن استخدام اللغة اليونانية لسان الفكر والثقافة والعقيدة في الشرق والتحول عنها الى اللغة القبطية وذلك بعد أن استطاع بنتينوس صياغة اللغة القبطية بإضافة عدد من الحروف اليونانية إلى الابجدية الديموطيقيه وكتبها بعد ذلك بحروف يونانية[61]
كان هذا الإجراء في حد ذاتيه تحدياً صريحاً لبيزنطة وأعطي لمصر في عصرها المسيحي صيغة وطنية حيث أصبح لها لغه خاصة تعبر عنها.

وأيضا من الأشياء التي كان لها أكبر الأثار من وجهه نظر بعض المؤرخين المحدثين فيما بعد على العلاقات السياسية بين مصر والإمبراطورية البيزنطية هو لجوئها الى ما يسميه البعض في العصر الحديث أساليب القوه الناعمة في مقاومتها وخلاصها التحرري والروحي ضد بيزنطة وهي سعيها لتشق لنفسها طريقا مستقلاً ليس فقط عقيدة ولساناً وإنما حضارياً فإلى جانب اللغة ظهر فن له سمات خاصة عرف بالفن القبطى استمد جذورة من الماضي مع لمسات مسيحية برسم الصلبان والقديسين والحيوانات والطيور التي تحمل دلالات مسيحية [62] كما اتخذت الوجوه سمات خاصه بها تحمل مضامين فكرية مسيحية بسيطة واتسم الفن بالبساطة ليتفق مع العقيدة والفن بشكل عام يعبر عن ذاتيته الخاصة وشخصيته التي تربط بين الدين والفن[63] وكذلك الموسيقى التي استخدمها الرهبان في الكنائس وتسمى Singare[64]

كذلك ظهر أدب جديد عرف بالأدب القبطى وهو أدب ذو طابع ديني ، وهو عبارة عن سير لأباء الكنيسة الأولين كما ظهرت الكتابات الأبوكريفية والتي تحوي بعض القصص الديني المثير والكتابات الغنوسية وهي محاولة التوفيق بين المسيحية والافكار الفلسفية[65] لكننا لم نرصد فيها أى شيء تناول الخلاص السياسي التحرري من بيزنطة إلا القول بأن الدين كان متنفساً لكراهية الحكم البيزنطي.

أستمر الوضع في مصر وأستمر الخلاص الروحي دون تحقيق الخلاص التحرري حتى جاءت فرصة على عهد الإمبراطور جستنيان الأول (527 – 565 م) حيث كانت سياسته ترمي الى مد النفوذ البيزنطي على الغرب الاوروبي وصاحب ذلك الخلاف المذهبي الأمر الذي زاد عداء مصر وبلاد الشام للامبراطورية وأعطي دفعة جديدة لما يحمله الأقباط وسكان بلاد الشام من ميول إنفصالية عن تلك الإمبراطورية من ناحية أخرى [66] مرت الإمبراطورية البيزنطية بحالة من الضعف لم يستغلها المصريون في خلاصهم التحرري بل أنهم وقعوا فريسة لاستعمار أخر حيث نجح الفرس في الإستيلاء على مصر سنه 616 م.[67] دام الحكم الفارسي في مصر حوالي 10 أعوام الى أن نجح الإمبراطور البيزنطي هرقل (610 – 641 م) في إستعادة مصر مرة أخرى وعند إذن عين هرقل في سنة 631 م بطريرك على الاسكندرية وحاكما أغسطسيا (واليا رومانيا على مصر) في نفس الوقت وهو أسقف يدعي "قيرس" ويعرف عند مؤرخي العرب باسم المقوقس أى أنه أسند الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد ليكون قادراً على قهر الأقباط المصريين [68]

لم يكد يصل قيصر إلى الإسكندرية حتى أرتحل البطريرك بنيامين إلى صعيد مصر ثم كتب الى أساقفتة جميعاً يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحاري ليتواروا فيها حتى يرفع الله غضبه[69] وكانت دعوته صورة تعكس أن المصريين في ذلك الوقت لا يستطيعوا تحقيق الخلاص التحرري وربما الروحي أيضا .

وتعيين قيرس أتى على مصر بكارثة ذلك أن الاضطهادات العنيفة التي أنزلها بالمونوفيزيتيين في مصر وعارضوها بشدة أثبتت ضعف مصر في وقت الأزمات وأجمعت مصر كلها على قطع علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية قبل مجيء العرب مصر .[70]

وقعت مصر في يد العرب المسلمون وبسط العرب نفوذهم السياسي ربما لضرورات حربية لأن موقعها الجغرافي الإستراتيجي يمثل خطورة على بلاد العرب نفسها حينما يفيق البيزنطيون الى أنفسهم[71]

خامساً : لماذا لم يتحقق الخلاص التحرري على أرض الواقع :

يمكن تلخيص أسباب فشل مصر والمصريون في تحقيق الخلاص التحرري في أربعة محاور مختلفة : محور يتعلق بالدين والديانة ، ومحور متعلق بالشخصية المصرية ، ومحور متعلق بالإمبراطورية البيزنطية ، ومحور أخير متعلق بصاحب النفوذ السياسي الجديد على مصر الإسلام والمسلمين .

أولاً : الدين والديانة :-

لكل دين نظرةُ خاصةُ تجاه السلطة تختلف وتتغير تبعاً للسياقات التاريخية التي يمر بها أتباع هذا الدين ويمكن أن نميز عدداً من الملاحظات حول حالة التباعد والإنعزال من فكرة الخلاص التحرري.

كان التباعد هو السمة المميزة التي صبغت شكل الخلاص التحرري من السلطة البيزنطية في الغالب الأعم فالمصريون بعد استقبالهم الديانة المسيحية ولكونهم بطبيعتهم متدينون عبر تاريخهم السحيق فقد تولد لديهم مفهوم شديد الخصوصية حيث أعتبروا أنفسهم ليسوا من سكان الأرض جغرافيا ولكن من سكان الجنة (حيث أبونا أدم) وهم على الأرض بشكل مؤقت لكي يؤدوا إختباراً محدداً ثم يعودوا وبالتالي فإن فكرة الخلاص الروحي كانت أعلي من الخلاص التحرري وقد ورد ما يؤكد ذلك في الكتاب المقدس حيث يقول المسيح " مملكتي ليست في هذا العالم"[72] مما عكس فكرة باهتة وسلبية على الدولة وتخومها الجغرافية الأرضية في أذهان المسيحيين المصريين بشكل عام.

كما تضمن العهد الجديد كثيراً من الآيات التي تحض على الإبتعاد وتحاشى السلطة الحاكمة وهي دعوات للسيد المسيح عليه السلام يدعو فيها أتباعه إلى الإبتعاد عن السياسة وعدم الإنشغال بمسألة السلطة في أنجيل مرقس[73] سأل بعض اليهود المسيح (في محاولة للإيقاع به) عن دفع الجزية للإمبراطورية الرومانية فقال لهم :"أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله " وهي المقولة التي اشتهرت وزاعت على الالسن.

أيضا جاء في الأناجيل العديد من الاقوال التي يفهم منها الدعوة الى الإبتعاد عن العنف في طلب الحق وهو الأمر الذي كان يتعارض مع الروح الثوريه التي كانت تميز اليهود الناقمين على السلطة الرومانية المحتلة ففي أنجيل لوقا[74] ورد :"من ضربك على خدك فأعرض له الأخر أيضا ومن اخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا"، وفي أنجيل متى[75] ورد قول المسيح : " وأما أنا فاقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأخر أيضا"

كان من الصعب تحقيق مبدأ المواطنة في مصر لأنه بعد دخول المسيحية كانت الكنيسة مشغولة بصياغة خبرات التدين أو ما يسمى اصطلاحا بالمذهب تأثراً بما كان سابقا فطبعت مصر القديمة واليونان أيضا المسيحية في القرون الأولى بطابعها [76] وكان هناك صراعاً بين المسيحية والوثنية وتابعيها من المصريين تمخضت عن إصطباغ التراث الهلنستي بلون مسيحي[77] هذا مع العلم بأن المسيحيين قد أنقسموا على أنفسهم في الإبتداء حيال الثقافة الهلنستية فرأى فريق منهم إمكانية الإستفادة من ذلك التراث في دعم العقيدة ورأى الفريق الآخر على النقيض من ذلك وأستمر الجدل بين هذين الإتجاهين طيلة قرون ثلاثه من العصر المسيحي وشهد القرن الرابع محاولات جديدة للتوفيق بين الاتجاهين أو بعبارة أخرى تنصير الحضارة الوثنية وهكذا اخذت المسيحية تمتص التراث الوثني رويداً رويداً .[78]

وفي الوقت نفسه صدرت من المصريين بعض المظاهر التي تهدم فكرة المواطنة تماماً فى مصر ففى الوقت الذى أصدر فيه الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (378 – 395 م) مرسوماً أعلن فيه بطلان العبادات الوثنية[79] قام الاساقفة المصريون وذهبوا إلى أبعد من هذا ، حيثُ قاموا بتدمير المعابد الوثنية ومراكزها العلمية ، ومكتباتها ، وجندوا أنفسهم لتحويل الوثنيين إلى المسيحية[80] رابطين في ذلك المواطنة بالدين .

كما قاموا في الإسكندرية وعلى رأسهم البطريرك السكندري ثيوفيلوس (385 – 412 م) بتدمير معبد ديونيسيوس كما شنوا هجوما على معبد الاكروبول السكندري الشهير فر على أثره الوثنيون بزعامة الفيلسوف أوليمبيوس[81] وعلى عهد كيرلس قامت الكنيسة بمهاجمة اليهود وأجرت مذبحة مريعة فيهم بعد أن ترأس كيرلس المظاهرات ضدهم وتوجه بها إلى معابدهم فهدمها رأساً على عقب وطارد كل يهود المدينة ثم نهب أموالهم[82] و كان هذا ضد أساسيات المواطنة .

ومظهر أخر من مظاهر فشل المواطنة التي كان من شأنها تحقيق الخلاص التحرري هي حين قام مسيحيوا الإسكندرية وعلى رأسهم كيرلس في القضاء على المدارس الفلسفية الوثنية بل أنهم لجأو إلى قتل "هيباتيا" الشخصية البارزة لأفكار تلك المدارس ، وهيباتيا ولدت فى الإسكندرية سنة 370م ودرست الرياضيات والفلسفة ونالت شهرة واسعة فى الشرق وظلت مخلصة للهلينستية التى كان يطلق عليها أنذاك الوثنية. فقبض عليها الرهبان وقادوها إلى كنيسة قيصروم حيث قتلوها شر قتلة.[83]

كما أخذ الخلاف العقيدي الحاد المجتمع المصري بعيداً عن فكرة المواطنة الأمر الذي كان يصب في رسوخ السلطة البيزنطية في مصر محققاً على أرض الواقع المبدأ الروماني القديم "فرق تسد"

وهذا الإنشقاق العقيدي هدد وحدة الكنيسة المصرية وإستقرارها وإنعكس بدوره على المجتمع في صورة إنقسام وإن اختلفت نسبته فضلاً عن الخلاف مع السلطة البيزنطية.

وعلى الرغم من أن الطرح الذي طرحه الكثر في أن المصريين في العصر البيزنطي حاولوا تحويل الكنيسة المصرية من مؤسسة دينية الى دولة قومية في مواجهة دولة الإحتلال إلا إن تلك المحاولات كانت تصب بالدرجة الأولى في موضوع علو العقيدة والدين على فكرة الوطن والمواطنة .

وما يؤكد ذلك أن هناك مشهد من المشاهد يشير إلي ذلك حينما حاول الإمبراطور جستنيان حل مشكلة المونوفيزيتية بعد وفاة ثيموثاوس في سنة 535م حيث عرض الإمبراطور على ثيودوسيوس الأول (535 – 567 م) البطريرك المصرى أن يقبل المذهب الخلقدونى مذهب

الطبيعتين ويساعد في نشره ووعده في مقابل ذلك أن يمنحه كرسي البطريركية والولاية في مصر ويكون جميع أساقفه أفريقيا تحت طاعته وهدده بأنه إذا لم يطع أوامره بالخروج من الكنيسة والمضي حيث يشاء فرفض ثيودوسيوس الأول التخلي عن مذهب الطبيعة الواحدة وقال لرسل الإمبراطور: " ليس لمولاكم سلطان إلا على جسدي الفاني ولكن نفسي في يد مخلص ومهما أردتم فافعلوا وأما أنا فأتبع إيمان أبائي " وترك كرسيه وأتجه الى الصعيد(84)

هذا في الوقت الذي كان فيه مصريون لم يعتنقوا المسيحية حيث بقوا على وثنيتهم يمارسون عبادتهم في سرية تامة خوفا من المسيحيين وبالطبع كان لهذه الفرقة والشتات أثاره السيئة البعيدة على وحدة وترابط المجتمع المصري أمام المستعمر البيزنطي تمثلت في تبدد الطاقات وفقدان الثقة حيث اتخذت السلطة البيزنطية من فرقة المصريين مصدراً لقوتهم ومستنداً لغزوهم.

ثانياً : الشخصية المصرية :-

كما هو معلوم فقد فقد المصريون إستقلالهم منذ الغزو الفارسي سنة 575 ق.م ثم تعاقب عليهم المحتلون تباعاً من الشرق والغرب حتى المحتل الروماني والبيزنطي فهل إتجه المصريون إتجاهاً واضحاً وصريحاً وجدياً في طرد المحتل البيزنطي أم أن القرون العديدة من قهر السلطة المركزية المطلقة قد طبع الشخصية المصرية بطابع الخنوع.؟

يمكن مناقشة هذه الفرضية بعرض بعض آراء باحثون ومفكرون معاصرون حول هذه القضية وإن كان هؤلاء اختزلوا رأيهم في شخصية الفلاح المصري على إعتبار أنه يشكل تاريخياً الجسد الرئيسي لشعب مصر .

وهناك باحثون محدثون يرون أن فكرة الخضوع عند المصري عميقة الجذور وصلت إلى أنه يفضل الموت على أن يثور حتى عرف بأنه في حالة خنوع أمام من هو أعلى منه ويرجع السبب في ذلك إلى مئات السنين من القهر والمعاناه.(85) وهناك رأى يصنف الأمة المصرية بالأمة المستكينة مستشهداً برأى جاء في كتاب الفلاحون للأب "هنري عيروط" عن كعب الأحبار أن الله بعد أن خلق كل الأشياء أعطى لكل شيء قرينا قال العقل: "أني ذاهب إلى سوريا", فقالت الثورة:"وأنا ذاهبة معك" ، وقال الفقر: "إني ذاهب إلى الصحراء" ، فقالت الصحة: "وإنا ذاهبة الى هناك", ولما قالت الوفره:"إني ذاهبة إلى مصر" ، قالت السكينة: "وأنا ساصطحبك"(86)

كما يرى "أرنولد توينبي" (87) أن المصري على مر التاريخ كان ينظر الى ممثلي السلطة وعلى رأسهم الحاكم نظرة إجلال بلغ في معظم الأحيان حد التأليه والتقديس ولذلك كان يزعن لأوامرهم بصورة شبه مطلقة وأصبحت طاعة الحاكم وكل من يمثله واحدة من أبرز الصفات السلوكية للمصري.

كما أن كتابات أحمد لطفي السيد قراءة للمشهد التاريخي السابق حفلت بالكثير من صفات الهوان والخنوع والدناءة وضعف النفس التي الصقها بالمصريين(88) غير أن هناك من رفض الموافقة على قبول هذه التصورات عن الشخصية المصرية التي عنوانها الخنوع وإن كان رأيهم منسحب على ما بعد الفترة البيزنطية مثل جابريل باير(89) فهو من الناحية النظرية لا يرى أن هناك دليل على صحة الطرح بأن سمة ما لشعب باسره أو لطبقة بأسرها يمكن أن تنتقل بالوراثه من جيل لأخر كما رد علي حجة مفادها أن ظروف مصر الطبيعية أنبساط رقعتها ويسر مواصلاتها وإعتماد الفلاح على الحكومة المركزية تجعل من الصعب عليه أن يثور فيرد بالقول إن عدداً صغيراً من الثورات كفيل بأن يقيم الدليل على أن التكوين النفسي للفلاح المصري لا يمنعه من الثورة.

أما الكاتب "عباس محمود العقاد" [90] فقد دافع عن الشخصية المصرية ذاكراً أن موقف الإنسان المصري من السلطة كان يقوم دائما على أساس من الشك والريبة وليس على أساس من التقديس والخوف ولم يكن هناك ود بين الفلاح المصري والسلطة لكي يحرص عليه وكان دائما متحفزاً للتغيير لكنه كان يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يجب أن يخاطر وحده.

وعلى أية حال إنطلاقا من الملاحظات السابقة فإن جماعية العقل المصرى التى هى النتاج الطبيعي لنمط الحياة المصرية في العصر البيزنطي لم تستطع أن تحقق فكرة المواطنة التي من شأنها طرد المحتل البيزنطي و بالتبعية تحقيق الخلاص التحرري.

ثالثاً : شخصية الإمبراطورية البيزنطية :-

المحور الثالث الذي أعاق تحقيق الخلاص التحرري وتطبيق مبادئ المواطنة في مصر في العصر البيزنطي هو شخصية الإمبراطوريه البيزنطية. وكما كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية هي امتداد واستمرار للإمبراطورية الرومانية بكامل هيئتها وعناصر قوتها وأسباب وجودها[91] فإن الفكر السياسي الروماني لم يكن يقبل دولة داخل الدولة حتى لو كانت هذه الدولة هي الكنيسة. أما الإمبراطور فقد أعتبر نفسه نائب المسيح على الأرض وعليه أن يختار لرعيته ما تؤمن به فذلك أهم واجباته ومن هنا كانت حدة الاضطهاد المسيحي للمسيحيين في مصر أقصى عذاباً وأشد إيلاماً من الاضطهاد الوثني.[92]

وينبغي الإشارة الى أن الخصائص العامة للدولة البيزنطية كانت ضد المواطنة بجميع مسمياتها وتعريفاتها فلم تكن الإمبراطورية البيزنطية دولة قومية وكانت تستبعد عنصر العرق فمفهوم العرق أو القوم كان غريباً وبغيضاً للفكر السياسي البيزنطي.[93] كانت الإمبراطورية البيزنطية تضم العديد من الشعوب ذات الاصول المتباينة واللغات المتعددة وكانت تضرب فكرة المواطنة لهذه الشعوب عن طريق روابط ثلاث رئيسية : دينية ، وإمبراطورية ، وثقافية فالرابط الأول الديني كان يعتمد على إعتناق رعاياها لدين واحد هو المسيحية ومذهب واحد لأن وحدة الإمبراطورية تستمد وجودها من وحدة العقيدة والمذهب.[94]

والرابط الثاني الإمبراطوري والذي يعني خضوع رعايا الإمبراطورية لسيادة الإمبراطور الذي اختاره الرب وغدا بحكم منصبه نائب المسيح على الأرض . وأصبحت طاعته واجباً مقدساً [95].

والرابط الثالث هو الرباط الثقافي المتمثل في جعل الثقافة الهلنستية أو اليونانية هو الإطار الذي يربط بين العناصر المختلفة الأصول والأعراف التي شكلت سكان الإمبراطوريه.[96] كما أن القبضة الحديدية التي فرضها الرومان على مصر وحدها كافية لضرب المواطنة . هذه القبضة التي جعلت على الأباطرة حتما مقضياً أن يضمنوا ولاء مصر الكامل وهدوء الأمور فيما إذا ما شاءوا أن يتجنبوا حدوث مجاعة في العاصمة قد تؤدي بعرشهم خاصة ازاء موارد القمح وذلك أنه منذ أن ضمه أغسطس مصر الى إمبراطورية الشعب الروماني كان الدور الرئيسي لمصر في الإمبراطورية الرومانية هو توفير الجانب الاكبر من احتياجات روما والقسطنطينية للقمح.[97]

والمجتمع المصري في ذلك الوقت لم يكن كله من المصريين الأصلاء بل كانوا خليطاً من المصريين واليهود والرومان والإغريق وعناصر أخرى مقسمة الى طبقات بعضها كانت تتمتع بحقوق المواطنة الرومانية والباقي من وجهه نظر الإدارة الرومانية مصريون يدفعون الضرائب.[98] وبالتالي فقد تعاملت الإمبراطورية البيزنطية مع شعوبها الخاضعة ومصر تحديداً بمفهوم النزعة الأبوية والتي كانت متجذرة فيها وهي نزعة لا تقر منح الحقوق بقدر ما تؤكد على الإلتزامات ولقد

تصاعدت هذه النزعة الأبوية من الأسرة حتى وصلت الى رأس النظام السياسي فهو الأب وهم الابناء الـذين عليهم الطـاعـة بغض النظر عن الحقوق التي تمنح لهم او الالتزامـات التي تفرض عليهم بالاضـافة الى ذلك نجد أن النزعة الأبوية لا تعرف المسـاواة فهناك تفرقة بين البيزنطي والمصـري والجميع منشـأ على تفاوت الحقوق والالتزامات ومنشـأ أيضـا على الطاعة وقبول ما يفرض له أو ما يفرض عليه . الأمر الذي يتناقض تماماً مع لزوميات مفهوم المواطنة .

رابعاً : شخصية صاحب النفوذ السياسي الجديد الإسلام والمسلمين :

لم يتحقق الخلاص التحرري مع وصـول صـاحب النفوذ السـياسـي الجديد الاسـلام والمسـلمين وربما تحقق الخلاص الروحي للمصريين في ظل الحكم الاسلامي.

جاء العرب المسلمون سنة 642م وأنتهي إرتباط وتبعية مصر للقسطنطينية ومما يذكر لعمرو بن العاص أنه كتب أمانا للبطريرك بنيامين ورده إلى كرسـيه بعد غيبة زهاء ثلاثة عشـر سـنة ونصـه:"أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فلياتي البطريق الى هاهنا في أمان وإطمئنان ليلى أمر ديانتة ويرعى أهل مليتة"[99] ولم تكن السنوات الأخيرة من السيادة البيزنطية على مصـر إلا خاتمة المطاف لسـيادة الإضـطهاد الديني الذي مارسـة الأباطرة المسـيحيون في القسـطنطينية ضـد بني إخوانهم في العقيدة المسـيحية في مصـر وجرى على يد الإمبراطور هرقل ونائبه في مصر قيرس الذى عرفه المصريون بالمقوقس من صنوف العذاب وألوانه ما لم تجر بمثله ويلات العذاب زمن الإمبراطور الوثني دقلديانوس الذى عرفت فترة حكمه (284 – 305 م) بعصر الإضـطهاد الأعظم وقد حاول هرقل والمقوقس حمل المصـريين على الإيمان بعقيدة تخالف إيمان كنيسة الاسكندرية واتبعوا في ذلك اسلوباً عنيفا. [100]

يقول المؤرخ ميخائيل السرياني:"لم يسمع الإمبراطور لكنيستنا المونوفيزيتية بالظهور في أيامه ولم يصغ إلى شكاوي الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت ولهذا فقد أنتقم الرب منه .... لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة واتهمونا دون شفقة ولهذا جاء الينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذوننا من أيدي الرومان وتركنا العرب نمارس عقيدتنا بحرية وعشنا في سلام"[101] مات الخلاص التحرري وشبع موتا مع مجئ المسلمين فهل إختزل المصـريون مفهوم المواطنة في مبدأ العدل والحرية الدينية والتعددية التي طبقها المسلمون.

يمكن قراءة فلسفة الوطن من خلال رأس المؤسسة الدينية لصاحب النفوذ السياسي الجديد "النبي محمد صلى الله عليه وسلم" فإنه لم يهاجر من مكة (وطنه) بسبب كفر أهلها بل هاجر بسبب ظلمهم ولم يأمر أصـحابه بالهجرة إلى الحبشـة لإيمان حاكمها بل لعدالته فهل إذا وجدت العدالة وجد الوطن وضمنياً وجد المصريون الوطن مع وجود العدالة التي قضت على فكرة الخلاص التحرري.

بهتت فكرة الخلاص التحرري مع مجيء المسـلمين وإيمانهم بالتعددية في كل شـيء وأولها الأديان فلم يسع صاحب النفوذ السياسي الجديد للقضاء على الديانات الأخرى ولم يكن هذا مجرد تسامح يمنح ويمنع. وطوال سبعة قرون منذ دخول المسيحية مصر حتى مجيء العرب المسلمون سنة 642هـ لم يحكم مصـر قبطي واحد ولم تكن هناك دولة قبطية هذا الأمر كان عاملاً كبيراً في قتل فكرة الخلاص التحرري لدي المصـريون ففي الجانب السـياسـي كان أعظم المراتب وصـل إليها المصـريون فى العصـر البيزنطى هم موظفون في الدولة[102] أما الوظائف ذات السـيادة والسـلطة فكانت للسيد البيزنطي.

ولم تكن هناك عاصمة للمصريين يمكن البداية منها للخلاص التحرري فعاصمة مصر القديمة كانت "ممفيس"[103] وهي منطقة مصر القديمة ودهشور لكن الرومان نقلوها الى الإسكندرية ونجحوا بعد أن فقدت اللغة المصرية إستقلاليتها في قتل الهوية المصرية لبعض الوقت.

وحتى التيارات الفكرية في مصر أبان العصر البيزنطي خاصة التيار الفلسفي والذي كانت الاسكندرية صاحبة المقام الأعلى بلا منازع بمدرستها الشهيرة التي جذبت الكثيرين من أبناء العالم اليوناني مفكرين وأساتذة وطلاباً كان لفلسفة الاسكندرية طابعها الخاص ومفكروا العصر السكندري كانوا يهدفون إلى فهم حكمة إلاهية دينية تحقق خلاص الإنسان باتحاده بالاله مبدأ وجوده وحياته[104] كل ذلك بعيدا عن فكرة الخلاص التحرري .

ورجال الفكر المسيحي في مصر بشكل عام لم يكن لديهم أى اتجاه في تفسير الكتاب المقدس وعظاته الدينية بعيدا عن الجسد والنفس والروح. [105]

أما اليهود بشكل عام واليهود المصريون بالتبعية كانوا ينظرون الى العهد القديم نظرة قومية كتاريخ قومي لهم وبشكل محدد فيما يتعلق بالأنبياء القوميين لبني إسرائيل[106] ولذلك فإن الدين عندهم يعلو فوق الحدود الجغرافية كل تلك العوامل ضربت المواطنة وفكرة الخلاص التحرري في مقتل.

وهناك عامل أخر هو تحول المصريون إلى الديانة الإسلامية وعلى الرغم من أن التدين ظاهرة بين الناس يشتركون في وجودها ويختلفون في وجهها فقد عرفت مصر مثل غيرها الكثير من الوجوة مثل الوثنية واليهودية والنصرانية وعندما وصل الإسلام أدى الى بعث تفاعل فكري عند الناس وأصبح هناك قابلية في التحول والتغير لكن قراءة للمشهد ذابت تماماً فكرة الخلاص التحرري ربما لأن المصريون الذين إعتنقوا الإسلام وجدوا أن المشابه العقيدي أقرب الى النفس حتى ولو كان من أقصى أركان المعمورة فالإنتماء الأول والأكبر والأساسى هو الإسلام وأمته ودار الإسلام وحضارته والمسلم أيا كانت جنسيته ليس على إستعداد للتخيير بين الإنتماء للإسلام وبين الدوائر الأخرى للإنتماء [107] مما أعطى مفهوماً أخر للوطن والمواطنة.

خاتمة:

فشلت مصر في تطبيق مفهوم المواطنة والخلاص التحرري حتى أن أحد المؤرخين المحدثين يفسر هذا الفشل ويرجعه إلى إبتعاد المصريون لقرون طويلة عن حدودهم الحضارية وذلك تحت تأثير النفوذ الثقافي الإغريقي والروماني والذي أنعكس بدوره في إختفاء الحركات الوطنية التحررية [108]

لقد كانت المواطنة بمفهومها وتعريفاتها المختلفة تعني لمصر والمصريين كسر القيود التي تحاصرها وكسر هذه القيود كان يتطلب مواجهة العواصف والتحديات ولم يكن يتسنى ذلك إلا بجماعية العقل المصرى التى هى النتاج الطبيعي لنمط الحياة المصرية عبر التاريخ .[109] وهذه الذهنية الجماعية للشخصية المصرية كما يقول "جاك بيرك" .[110] قادرة على أن تجمع في لحظة واحدة يحسبها المرء نهاية بينما ليست سوى بداية جديدة. هذا هو ما جعل مصر لا تضيع ابداً رغم أنها كانت تخسر كثيراً. [111]

وفي النهاية يمكن القول أن مصر في العصر البيزنطي صارت على طريق الهوية وحققت الكثير من خلاصها الروحي ولكنها لم تستطع أن تحقق شيء على طريق المواطنة ، لأن المواطنة إنتساب جغرافي والهوية إنتساب ثقافي ، فالراسخون في الوعي بالمواطنة يدركون عند قراءة تاريخ حقبة

مصـر في العصـر البيزنطي أن التمييز والتهميش المذهبي أو العقيدي لهذا الطرف على ذاك الطرف هو سلوك أنتهك مفهوم المواطنة.

كانت مصـــر دولة متعددة الثقافات ولم يكن بوســـع الرومان الإعتراف لكل ســـكانها بهوياتهم الخاصـة وبما يشعرون حقا أنهم ينتمون إليه . كانت مصر تائهة في تلك الحقبة بين موضوع الوطنية والقومية والهوية الوطنية ، كان لابد لمصـــر والمصـــريين من أجل تحقيق المواطنة والخلاص التحرري وربما الديني هو صعود التيار الذي يبالغ في الاعتزاز بالذات وهو ميل ينصرف بالضرورة الى إنكماش على الذات لكن مصـــر في تلك الفترة كانت نموذجاً للعالم الجديد الذي تلتقي فيه الثقافات والحضارات ويتعارف فيه البشر ويتشاركون حياتهم مثل نهر كبير تصب فيه عشرات الروافد الآتية من مختلف الجهات ... وسوف تظل المواطنة والقومية مسار تساؤل لدى المواطن الذي يعيش على أرض مصـر كان لا بد من طرح مسألة المواطنة والوطنية والقومية من زوايا تضطر المواطن من مساءلة قناعاته السابقة وربما إعادة النظر في مفاهيم يعتبرها الناس مسلمات أو بديهيات للوصـول للوطنية الشـاملة الكاملة التي لا تقبل التمايز بين الأمم ، فالمنتمون إلى أمة يقررون لأنفسهم حقوقاً لا يتمتع بها بناء الأمم الاخرى لتنطلق المواطنة الشاملة من فرضية أن جميع الحقوق توافقات بين البشر وليس فيها ما هو إمتياز مرتبط بالولادة أو العرق أو الأصـل وليعى المصـري أن مفهوم الأمة مفهوم ثقافي عابر للحدود ولا يترتب عليه أى حقوق ســياســية وأن هناك إتفاق ضـــمني عالمي فحواه أن الحدود الإقليمية تشكل حدوداً فاصلة بين الأمم ، وأخيراً كان الغرض من البحث هو رصد تحركات الشـعب المصـري ومحاولاتهم الإنتقال من وضـع التابع إلى وضـع المواطن ، كان الغرض رصـد المخاض العسير في محاولتهم رفض التبعية إلى الإصرار على المشاركة الفعالة التي تحقق مصالح الناس وتصون كرامتهم ، كان لابد من زرع مصطلح المواطنة في تلك الفترة و إستنطاق النصوص المختلفة لقراءة دور مصر والمصريين في تلك الحقبة التاريخية الهامة.

قضية الأضرحة و أثرها علي المجتمع

- **مقدمة :**

لم يختلف الإنسان البيزنطي عن غيرِه، حيث افترض وجود عالَم علوي مفارق لعالمه الدنيوي، وزاد افتراضـــه أن هذا العالَم يحكم العالَم ويرســـم المصـــير بقدرته، فأضـــفى عليه كل معاني التقديس والتعظيم والإجلال، ومن ثَمَّ كان لا بد من وجودِ رموزٍ أو أدواتٍ تواصـــل مع هذا العالَم العلوي اكتناهاً لجماله واستلهاماً لسحره، ودفعاً لسطوته، ولأن هذا العالَم العلوي المقدس يفيضُ بالقوة والقدرة والاقتدار، ويمتلكُ أسـباب المنع والعطاء والموت والإحياء، اعتقد الإنســان البيزنطي مثل غيره في الضــريح، كأحد مســائل التواصل مع الروح الكونية لهذا العالَم العلوي استجداءً لعطفه والتماساً لرحمته.

وتزخر الإمبراطورية البيزنطية بالعديد من أضرحة القديسين، مما أَهَّل فضاءاتها أن تكونَ مسرحاً للزيارات والاحتفالات، حتى أصـــبحت واحدةً من بين الظواهر الاجتماعية الدينية والثقافية، بكل ما تكتنفها من أبعادٍ مقدســـةٍ عقائديةً كانت أو دنيوية ، جعلت الكثير من المؤرخين والأنثروبولوجيين يولونها اهتماماً، وحتى الإنســـان العادي الذي أوجدها، ولم يجد لها تفســـيراً غطت على مخيلته طبقة من الإبهام، كونها قوةً غامضةً وكامنةً خارجةً عن سيطرته الإرادية.

جاء البحث ليجيب عن تساؤلاتٍ مختلفةٍ. هل كان انتشار الأضرحة آفةً تسرسبت بين ثنايا المجتمع؟ ونشعت في الهواء حتى أصابت الكبير والصغير؟ وهل الأضرحة آفةٌ بالغةَ النقص والسوء؟ هل كان لدى المجتمع فضولٌ سماعيٌ لا معرفيٌ وإقرار أحكام وفق السمع بأذن الآخرين وسيطرة اللعينة (قالوا)؟، هل لم يكن لدى المجتمع البيزنطي فضـــولٌ معرفيٌ يقربه لمنابع الاعتدال ثم الإنصـــاف حيث تتكشـــف له حقيقة الأمر... ترى ما الذي يدفع الأحياء في المجتمع البيزنطي إلى الاعتقاد بوجود ســـلطة نافذة للموتى على الأحياء أنفسهم؟ ... هل زوار الأضرحة أملوا على الرواةِ تاريخاً أحادي الصوت لا يلتفت إلى صوت العقل، خاصةً وأن التقديسَ عادةً ما يعطل العقل ويستقدم البداهات؟ هل انتشار الأضرحة ومزاراتها المختلفة عينةٌ نموذجيةٌ لنمطٍ من معايشة الماضي كثقافة، وهي معايشة عميقة يمكنها أن تصدر عن فعالية مذهلة للراسب الثقافي؟

وجاءت الدراســة هنا لا لكي تُثبت أو تَنفي فائدة زيارة الأضــرحة، فزائر الضــريح ليس بملاكٍ ولا مخالفه بشيطان، بل إنهما حبتان من حبات عقد البشرية، التي يُؤخَذُ منها الخير، ويُرَدُّ إليها الشر.

و تسعى الدراسة إلى التنقيب عن ظاهرة انتشار الأضرحة والتعرف على حيثياتها من خلال تعاطي المجتمع البيزنطي معها، والوقوف على المنفعة المادية والمعنوية التي يجنيها هذا المجتمع من جراء انتشارها الواسع.

- **الضريح والقديس والقداسة عند البيزنطيين :**

الضريح مفرد جمعه ضرائح وأضرحة، والضريح في أبسطِ تعريفاته هو مشيدةٌ معماريةٌ تُبنى على قبر أحد الأشخاص تخليداً لذكراه. وهو أيضاً الحُجْرَة المشتمِلَة على قبرٍ أو شاهدِ قبرٍ تعلوها قبة على رفاتِ شخصيةٍ لها مكانة دينية أو دنيوية تدعو إلى تخليد ذكراه. ومن هذه الأضرحة المقببة ما عُرف بالمشهد أو المقام أو التربة أو المزار كمقصدٍ يزار، واسم ضريح مأخوذ من "موسولوس Maussolos" ملك "كاريا Caria" في آسيا الصغرى، الذي شيدت له امرأته في سنة 350 ق.م. ضريحاً بالغ الفخامة.

وعلى أية حال فإن تشييد الأضـــرحة للموتى والملوك ورجال الدين منتشـــرٌ بين الشـــعوب البدائية والمتحضرة، الغابرة منها والقائمة .

غير أن أقربَ تعريفٌ لدراستنا عن الضريح ما ذُكر من أنه "المكان الذي يضم رفات القديس، وهو مكان اللقاء بين السماء والأرض، فيه يلتقي عالَمُ الإنسان بعالم الروح".

أما عن القديس فالملاحظ احتكار عالَم الرهبنة للقداسة والقديسين، فحياة الزهد وقيم التقشف والتوجه الروحي أهم مبادئ الرهبانية، وهي قيمٌ عليا من شأنها ترسيخُ الصلةِ بين القديس وشخصية الراهب، فضلاً عن أن المجتمع البيزنطي كان يَعتَبِرُ الحياة الرهبانية الطريق الأمثل لبلوغ القداسة.

كما شغل مرتبة القداسة الشهداء، خاصة في العصور المسيحية المبكرة لمعاناتهم من الاضطهاد الديني، وتضحيتهم بحياتهم من أجل المسيح في العهدِ المبكرِ للإمبراطورية الرومانية، التي كانت المُسَيْطِرَة على معظم الأراضي التي انتشرت فيها المسيحية.

والنموذج الثالث من القديسين كان رجل الدين الذي بلغ هذه المرتبة نتيجة نوعٍ مثاليٍ من الحياة، عكف خلاله على قراءة الإنجيل، واقتفاء تعاليم المسيح.

ولما كانت القسطنطينية - التي اعترف فيها الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية في مرسوم ميلان Edict of Milan الشهير 313م - لم تشهد استشهاد أحدٍ على أرضها في بدايات المسيحية، لكونها بُنِيَت في العهد المسيحي، فقد ظهرت الحاجة لرفات قديسين لتوضع في روما الجديدة.

وإن كان مفهوم الرفات أوسع من كونه متعلق فقط بأجساد القديسين، لكنه متعلق بكل الأشياء المرتبطة بقبورهم وأدواتهم ومتعلقاتهم الخاصة من مقتنياتٍ ماديةٍ لامسوها أو لامست رفاتهم، لذا عُرفت بالآثار Reliquiae أو البقايا Pignora.

وهكذا انتشرت الأضرحة في كل مكانٍ من الإمبراطورية البيزنطية، بل إنها أصبحت سمةً منتشرةً حتى بين المناظر الطبيعية، وأصبحت "إيصالات الطاقة الإلهية"، حتى إن عالِم اللاهوت يوحنا الدمشقي أطلق عليها في القرن الثامن الميلادي "أوعية الطاقة الإلهية Receptacles of Divine Energy" . وكما كان الضريح وعاء القداسة، فإن القديسَ أصبح أداةُ التواصل مع الإله . فضلاً عن أن القديسَ وضريحه أصبح الصورة الرمزية لكل مدينة في داخل الإمبراطورية البيزنطية، ويمثل هوية المنطقة وراعياً وحامياً لها، يذود عنها في مواجهة القوى الخارجية والداخلية على حدٍ سواء.

أما عن نشأة مفهوم القداسة في المجتمع البيزنطي، فنود القول إن الإنسان على مرِ العصور عَبَّرَ عن نزعته الدينية من خلال عملية تكوين أنساقٍ فكريةٍ وعقائديةٍ ورمزيةٍ مرتبطةٍ بمقدساته. وضمن هذا المجال، كان الأفراد ولا زالوا يمارسون طقوسهم وشعائرهم الجمعية التي كان الهدف منها التواصل والتفاعل مع هذا المقدس بلغةٍ رمزيةٍ، بحيث لا يتحقق هذا التواصل إلا باستخدام واسطة بين الإنسان ومقدسه ألا وهو الدين، هذا الدين الذي يُمثل مجموعةً من الظواهر الاعتقادية والعملية التي تتصل بالعالَم المقدس.

والمقدس يتجلى في كل ما يمليه المجتمع ويقترحه، حتى يغدو قوةً تؤثر على الفرد وتحيط به من جوانب حياته اليومية، كقيمِه ومعتقداتِه الدينية وسماتِه الثقافية (الدنيوية). يقول أحد الباحثين: "المقدس مجموع الأشخاص والأشياء والأفعال الاجتماعية التي قررت الجماعة أن تضعها خارج المألوف والطبيعي، فالأشياء المقدسة لا تملك شيئاً يجعلها كذلك، فأخذت طابع التقديس لأن المجتمع هو الذي منحها ذلك من خلالِ جعلها خارجةً عن الطابع المألوف، واتخاذها كرموزٍ مقدسةٍ".

أما عن نشأة وتطور مفهوم القداسة وعبادة القديسين في الفكر الديني الشعبي البيزنطي، فالدراسات التاريخية تؤكد أن الكنيسة في الفترة الباكرة من تاريخها، لم تتخلَ عن التراث والفكر اليوناني القديم بصورة

مطلقة، بل على العكس تبنت هذا التراث، وتفاعلت وأخذت منه ما يكفل لها النجاح في مهمتها التبشيرية بين مجتمعاتٍ ورثت هذا التراث وتعايشت معه.

بل إن مؤرِّخَ الكنيسة ثيودوريتوس القبرصي Theodoret of Cyrrus أشار إلى تبني الكنيسة لبعض مظاهر العبادات الإغريقية، لتلبي بعض الاحتياجات النفسية لرعاياها.

وكانت عبادة الأبطال وأنصاف "الآلهة" قد شَكَّلَت جانباً "مهماً" في معتقدات الإغريق الدينية والشعبية، حيث تدور هذه العبادة حول بشرٍ تم تقديسهم بعد وفاتهم، ونسجت حول قبورِهم الكثيرَ من المعجزات والأعمال الخارقة، مثل أن أرواحهم تهيم حول هذه القبور لتساعد مريديها وتحميهم وتدفع عنهم الشرور.

وقد علق أحد المتخصصين في الديانات عن أثر عبادة "الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريقية" في نشأة وتطور عبادة القديسين بقوله: "لقد استمرت عبادة الأبطال في ثياب مسيحية، وظلت على قيد الحياة بذات الصيغ، ولم يكن هناك اختلافٌ سوى أن الشهداء والقديسين جاءوا زمنياً بعد الأبطال"، وإن كان هذا الرأي لا ينفي وجود تأثيرات هلينستية وشرقية وسورية ومصرية قديمة في نشأة وتطور القداسة البيزنطية.

وعلى أيةِ حالٍ فإن القديسين أمثال أوغسطين Augustine وجيروم Jerome - على سبيلِ المثال وليس الحصر - أكدوا على تبجيل وتقديس الرفات بشكلٍ عامٍ التي من خلالها نقدس "الإله".

- **فلسفة الحج إلى الأضرحة (الأسباب والدوافع) :**

السؤال الذي يجب طرحه هنا ما الذي يجذب الناسَ إلى الأضرحة ؟ وما هي دوافع زيارتهم؟ والسؤال على الرغم من بساطته، إلا أنه يحتاج من المرء إلى فهمٍ عميقٍ للطبيعة البشرية. وبغض النظر عن السياق مهما كانت الفترة الزمنية، قد تبدو تصرفات الناس قد تم اتخاذها لأسبابٍ بسيطةٍ، ولكن عند تحليلِها نجد أنها تنطوي على دوافع أكثر تعقيداً.

يعرض أحد الباحثين شيئا مما يهدف إليه زوار الأضرحة حيث يذكر أن: البعض كان يذهب ليتمتع بِكَرَمِ الضيافة، وآخرون جاءوا ليختبروا مهنتهم الرهبانية، وزُوَّارٌ آخرون بقوا لتلقي الفنون الطبية، أو خضعوا لطقوسِ طردِ الأرواح الشريرة التي قد تستمر عدة أيام، لكن آخرين جاءوا ببساطةٍ للحصول على مأوى لفترة من الوقت، بما في ذلك عدد من الرهبان "المتشردين"، على الرغم من أنه من الواضح أن الضيوف ذوي الرتب العالية عومِلوا بشكلٍ أفضلٍ من نُظرائهم من ذوي المكانة الاجتماعية المنخفضة، حيث إن بعض الزوار المقيمين قد طُلِبَ منهم أداء بعضٍ من أسوأ الوظائف، مثل سحب الماء من النهر في الشتاء، أو جمع الكراث البري في أعالي الصخور الجبلية، وأشياءٌ أخرى .

وباستعراض وتحليل المصادر التاريخية نجد أنها تؤكد أن أسباب ودوافع الزيارة أكبر وأعرض من ذلك بكثير، فهي لأسبابٍ طبيةٍ واقتصاديةٍ وتجاريةٍ.

تأتي في المرتبةِ الأولى الأسباب والدوافع الطبية، أو فيما يُعرف بالعلاج المقدس في الفكر المجتمعي البيزنطي، وقد انتشرت أضرحة الشفاء في الإمبراطورية البيزنطية بشكلٍ واسعٍ مثل ضريح القديس كوزماس St. Cosmas ، ودامیان St. Damian، وضريح القديس يوجنيوس St. Eugenios، وضريح يوحنا الرسول St. John of E ، والكثير والكثير من الأضرحة.

بل وصل الأمرُ إلى أن المجتمع البيزنطي تعامل مع هذه الأضرحة بتخصصها في علاج أمراضٍ محددةٍ، مثل ضريح القديس فيبرونيا St. Febronia الذي تخصص في علاج أمراض النساء، والقديس فوتين St. Photein في تخصص العيون، والقديس يوحنا برودروموس St. ProdromousK ومعه القديس أرتيموس في الأمراض التناسلية.

والملاحظ أن هذه الأضرحة لاقت إقبالاً شديداً من شتى فئات المجتمع البيزنطي، شملت الطبقة الأرستقراطية والدنيا من قضاةٍ وشعراء وأغنياء وتجار وحرفيين وحراس وخدام، خاصةً أن الأمراض العضوية المختلفة وما ينتج عنها من آلامٍ شديدةٍ والتي تمنع المريض من ممارسة حياته بشكلٍ طبيعي، لم تكن قاصرةً على الأغنياء أو الفقراء.

وإذا كان سبب إحجام البيزنطيين عن الذهاب للأطباء بسببِ عدم قدرة بعضهم على تحمل تكاليف العلاج لدى هؤلاء الأطباء، فإن الموقف العدائي للوثنية في مسألة الحاجة والعوز الاستشفائي كان هو السبب في نشاط فكرة زيارة الأضرحة لدى البعض الآخر، فضلاً عن عجز الأطباء وما يمارسونه من طبٍ تقليديٍ في علاج كثير من الأمراض، والمصادر البيزنطية تحكي الكثير عن مرضى لجئوا إلى الأضرحة، وتم شفاؤهم عن طريق العلاج المقدس.

وعلى الرغم من أن ما يجري في الأضرحة من طقوس العلاج المقدس، إلا أن هذه الأماكن لم تخلُ من استخدام نوعٍ من المراهم (Kerote) شاع استخدامه بين المرضى اللاجئين إلى أضرحة القديسين، وكان يتم توزيعه في عقب صلوات مساء السبت من كل أسبوع.

ومن جهةٍ أخرى فإن هناك من كان هدفه من زيارة الأضرحة هو الحصول على زيت "الميرون "Myron - وهي كلمةٌ يونانيةٌ تعني طبيبٌ مقدَسٌ أو دهن مقدَسٌ - وهو مادةٌ شبيهةٌ بالزيت المدخن تنضج من عظام القديس – على حد قول المصادر - تدفقت عبر سلسلةٍ من الأنابيب في صهاريج بالقرب من القبر، كان الزوار يحصلون عليه في خزفٍ صغيرٍ وأمبولات أو قوارير مزينة بصور القديسين.

على أن الاستخدام الأكثر شيوعاً لهذا الزيت كان في أغراض العلاج المقدس، فوفقاً لاعتقاد البيزنطيين في أن القدرة الإعجازية للقديس يمكنها الانتقال إلى أي شيء بمجرد اتصاله بجسده أو ضريحه، حيث ساد تصورٌ بينهم بأن هذا الزيت فيه قدرة شفائية، حيث استُخدِمَ كدهان وعلاج لكثير من الأمراض.

وآخرون يَحُجُّونَ للأضرحة ليفوزوا ويحوزوا بقطع القماش التي توضع بجوار رفات القديسين، لتكتسب قدرة الرفات وتصير تمثل شخص المقدس وهي ما يعرف "برفات الاتصال Contact Relics" .

وعلى أية حال فإن أهل المنطقة المحيطة بالضريح ورجال الدين كان لهم دورٌ كبيرٌ في الدعاية للضريح الذي ضم القديس، الأمر الذي أدي إلى جذب الناس الباحثة عن المعجزات وعن العلاج، وما يستتبعه من رواجٍ اقتصادي كبيرٍ للمنطقة، كالترويج مثلاً لأحد القديسين مِثل القديس لازاروس Lazaros of Glasion ـــ على سبيل المثال، الذي قيل إنه يوفر الحماية ضد الأفاعي والعقارب، وربما هذه الدعاية والعوز والحاجة هي التي جعلت عربياً يعتنق المسيحية ويزور القديس لازاروس.

ولم تخلُ الأضرحة حتى من البحارة الذين كان غرضهم من الزيارة الحماية والوقاية من مخاطر الملاحة، ومن البدهي وجود صنفين من زوار الأضرحة متمثلين في الفقراء واللصوص الذين جاءوا ليس سعياً وراء الرزق الروحي، وإنما بحثاً عن احتياجاتٍ جسديةٍ.

- **جوهر النشاط الديني في الأضرحة :**

لم تخلُ الأضرحة من ممارساتٍ طقوسيةٍ و أصبحت الوعاء الذي تنشط فيه جملةً من السلوكيات الدينية والاجتماعية والنفسية والتربوية والسياسية.

وعلى الرغم من أن هناك تعريفاتٍ كثيرةً للطقوس تصب كلها في الممارسات الدينية التي تُستَدْعَي من المعتقدات، إلا أنه يمكن القول في تعريفه: " إنه مجموعةٌ من أفعالٍ مكررةٍ ومشفرةٍ (Codifies)، تأخذ أشكالاً مختلفةً حركيةً وشفويةً، مليئةً بالرموز، ومؤسسةً على اعتقاداتٍ بوجود قوى مقدسة مؤثرة، ومن خلال هذه الطقوس يحاول الفرد والجماعة التواصل مع هذه القوى".

ومن هنا فإن المخيلة البيزنطية وَجَدَت أن عليها القيامَ بطقوسٍ معقدةٍ للحصول على بركةِ وشفاعةِ القديسين، ومن أجل العلاج المقدس كان عليها ممارسة "طقس حضانة المعبد" Incubation والمُستَمَدُ في حقيقته من عبادة أسكليبوس Asclepieia - وهو إله الطب في الديانةِ والأساطيرِ اليونانيةِ القديمةِ - حيث كان على الشخص المريض التوجه إلى المعبد بعد القيام ببعض الطقوس، ثم النوم في المعبد، وفي أثناء نومه يتم علاجه من خلال تجلي الإله له في رؤيةٍ منامية، وهي ما تعرف بممارسة عملية حضانة المعبد.

وما حدث في العصر البيزنطي هو استبدال المعبد بالأضرحة والكنائس، حيث اعتقد المرضى أن مبيتهم بالأضرحة، أو تواجدهم بالقرب من المكان الذي دُفن فيه القديس أو المزار الخاص به، قد يمنحهم فرصةَ تجلي أولئك القديسين في رؤيةٍ منامية يتم علاجهم من خلالها، وحظيت أضرحة القسطنطينية وقديسوها بشهرةٍ واسعةٍ وقدرٍ كبيرٍ من هذه الممارسة العلاجية.

وتقدم لنا المصادر البيزنطية خاصةً كتاب الأدب "الهجيوجرافي Hagiography" عدداً كبيراً من قصص وحكايات الشفاء يظهر فيها التأثر الواضح بطقس "حضانة المعبد"، منها على سبيل المثال ما يرويه كاتب سيرة القديس ديميتريوس السالونيكي St. Demetrius عن شفاء أحد أعضاء مجلس السناتو من مرضٍ ميئوسٍ منه، بعد أن ظهر له القديس في منامه وطلب منه أن يأمر خدامه بحمله من القسطنطينية إلى ضريحه بسالونيك، وعنده استغرق المريضُ في نومٍ طويلٍ تخللته رؤية القديس... وقصةٌ أخرى عن علاج قس بكنيسة الإسكندرية، أصيبت عيناه بمياهٍ زرقاءٍ، من خلال رؤياه للقديسين عند ضريحهما.

وقصصٌ أخرى خاصة بأحلام ورؤى الشفاء، يظهر فيها القديسون كأطباءٍ أو رهبانٍ، حيث يتجلى القديس للمريض ويتحرى منه عن أعراض مرضه، ويهدئ من روعه، ثم يعالجه عن طريق القراءةِ والتلاوةِ عليه، وفي النهاية يطلب منه تقديم الشكر للرب على الشفاء أو مساعدة الآخرين.

والعلاجُ لم يكن بشكلٍ عامٍ قاصراً على مرضٍ بعينه، ولكنه اشتمل على معظم الأمراض المعاصرة في ذلك الوقت، حتى الأمراض النفسية والمستعصية، بل إن بعضها تطلب في علاجه استخدام الماء والزيت المقدس، والشرب من زيت مصباح الضريح. وأحياناً تطلب العلاج الاستحام في الحمام الملحق بمجمع الضريح.

وقد أقبل على العلاجِ العديد من جنسيات العالم في ذلك الوقت، كزائرين للأضرحة، مثل سكان الجُزُرِ والأثيوبيين والتراقيين والعرب والسوريين والبيثيين وغيرهم.

وعلى الرغم من أن الدوافع التي جذبت الناسَ إلى الأضرحة كانت متنوعة، إلا أن الممارسات والأنشطة التي شارك فيها الزوار أثناء تواجدهم في الضريح كانت موحدة نسبياً، حيث شَكَّلَت الصلاة الفردية والخاصة جوهر النشاط الديني في الضريح، كما رافقت معظم الأضرحة صلاة جماعية على شكل خدمات طقسية مختلفة.

وكانت الأضرحةُ تضم رجالاً مقدَّسِين ومساعدين يُقدمون المشورة للزائرين، وقد تُجري مناقشات قضايا وشواغل معينة ونداءات مساعدة، وفي كثيرٍ من الأحيان كان اللقاءُ يتوجُ باعترافٍ يتبعه غفرانٌ للخطايا لتحل البركة وتنتهي الخطيئة.

وما كان يَجري داخل الأضرحة وحولها قد يثيرُ التساؤل والفضول، هل ما كان يجري من عمليات التوسل بالأضرحة والرفات المقدس هو في حقيقته عملية استبدال الآلهة الوثنية القديمة بالقديسين الجدد؟

لقد وصل الأمر بكاتب سيرة القديسين يوحنا St. John وكيروس St. Cyrus أن أَطلق مسمى (سكليبداروم) Asclepedorum على ضريح القديسين، واستُخدِمَ مراراً وتكراراً مسمى "نصف الإله" "Demigod" دون أن يعتبر ذلك المصطلح مخالفاً للمسيحية، وذلك تعبيراً عن العلاج المقدس الذي ارتبط بالقديسين، والذي ارتبط بإله الطب عند اليونان.

وكأن ما يحدث في الأضرحة كان متوقعاً، حتى إن رجلَ دينٍ فرنسيٍ عاش في القرن الخامس الميلادي أَطلَق على عُبَّاد القديسين ورفاتهم اسم "الوثنيين Idololatrae" وانتقدهم متسائلاً: "لماذا نضيء الشموع بينما الشمس ساطعة؟ لماذا نستخدم رفات القديسين بينما من الممكن أن نصلي للمسيح مباشرة؟"

وقد قوبلت آراء هذا الرجل بالمعارضة الشديدة من أطرافٍ مسيحيةٍ، معقباً عليها القديس جيروم Jerom (420م) بمقالةٍ طويلةٍ مدافعاً فيها عن الرفات المقدسة.

- **أضرحة النساء القديسات :**

لم يكن غريباً على النساء البيزنطيات ارتباطهن وتعلقهن الشديد بالأضرحة، فتقديس السيدة العذراء مرتبطٌ بمنظومةِ الأضرحة والكنائس، التي غالباً ما كان يوجد بها رفات أو أيقونات، فمثلاً الكنيسة المشهورة "بلاكرناي Blachernai" تحوي العديد من الرفات والرموز المقدسة، حيث كانت تضم وشاح السيدة العذراء ونطاقها، وقطعة القماش التي كان يُلَف بها السيد المسيح وهو في المهد.

وتشهد الكتابات الهجيوجرافية أن القداسة لم تقتصر على القديسين الذكور فقط، بل شمِلت النساء أيضاً، فهناك قديساتٌ عرفن بالزهد والتقوى، ولهن دورٌ كبيرٌ في الفكر الديني، ولهن معجزاتٌ خارقة.

فمثلاً القديسة يوفيميا (آفيميه الشهيدة) St. Euphemia بكنيستها الشهيرة في خلقدونية، والتي وُلِدَت في منتصف القرن الثالث، والتي أيضاً قضت حياتها شهيدة بتولاً للمسيح، وكانت لها معجزاتٌ كثيرة، وكان الإمبراطور موريس (582 – 602م) قد تشكك فيما يُذكر عنها من معجزات مرجعاً ذلك لخداع البشر، كتدفق ضريحها دماً حياً تفوح منه رائحة سماوية لا نظير لها، لولا أنه رأى هذه المعجزة بعينيه فبكى قائلاً: "لقد تجلت معجزات الرب في قديسيه".

والقديسة ثيودورا السالونيكية Theodora of the Salonike (812 - 892م) التي صورتها المخيلة البيزنطية في قصة أن زيتاً ذا رائحة عطرية ينساب من تابوتها ومن كف يدها اليمنى.

على أية حال كانت الأديرة والأضرحة مراكز للجود والكرم وتوزيع الطعام والملبس والأموال على الفقراء والمحتاجين، وكذلك مراكز للعناية بالمرضى والحجاج وعابري السبيل، وربما أن أفكار القديس (باسيل العظيم) قد أسهمت في هذا الشأن حين أعلن: أن الرهبانية لا ينبغي أن تنفصل عن حاجات المجتمع الإنساني وأن ممارسة الأعمال الاجتماعية والخيرية يجب أن تصبحَ عنصراً أساسياً في حياة الجماعة الديرية، وأن سعي الراهب يجب ألا يكون فقط نحو خلاصه، ولكن نحو أعمال الخير الإنسانية.

ومن هنا فقد أقبل النساء البيزنطيات على أعمال الخير بشكلٍ عامٍ خاصةً تجديد وإصلاح الأديرة والأضرحة مثل الأميرة ثيودورا روليان Theodora Rolian التي أصلحت دير القديس أندرو Andrew في القسطنطينية من أموالها الخاصة. وكان هذا الدير مدمراً فقامت بترميمه وإصلاحه كدير نسائي، ووَسَّعَت وزَيَّنَت كنيسته وقضت فيه بقية عمرها كراهبة تكرس وقتها للعبادة والقراءة.

والسيدة ماريا ديوكاينا كومنين Maria Doukaina التي تعاونت مع زوجها في إعادة بناء كنيسة دير بامكريستسوس Pammakaristos وإصلاح مبانيها المهدمة، وأقامت كنيسة جديدة ألحقتها بهذا الدير، وكرستها كضريح لزوجها وأعضاء أسرتها الآخرين.

و"أنا كومنين روليان Anna Rolian" التي أسست ديراً للمسيح في القسطنطينية، وتلقت فيه النذر الديرية باسم أنتونيا Antonia وقد دُفِنَت فيه، وقد ذَكَرَ الشاعر مانويل فيلبس Manwel Phileps أن أعمالها الطبية خَلَّدَت ذكراها.

ولا شك أنه كان لأضرحة القديسات حضورٌ عظيمٌ في المجتمع البيزنطي، ولم يفت كاتب المعجزات أن يشير إلى دور القديسة فيرونيا St. Febronia في مسألة العلاج، حيث يشير إلى ظهور القديس أرتيموس في رؤيا لأمٍ كانت ابنتها مريضةً، وأرشدها إلى الذهاب إلى ضريح القديسة فيرونا الذي يقع في كنيسة يوحنا برودروموس، حيث ظهرت القديسة للفتاة في رؤيا وعالجتها.

غير أن السؤال الأكثر حضوراً عند الحديث عن أضرحة النساء والقديسات هو هل كان يحق للمرأة ارتياد الأضرحة والأديرة بحرية مطلقة في الدولة البيزنطية؟

بدايةً نود القول إن التشريعات الكنسية والمدنية اتخذت موقفاً يَحظُر فيه دخول المرأة إلى أديرة الرجال، وكذلك الرجال أديرة النساء كما جاء فى نَصَّ القانونِ رقم ثلاثة وثلاثين لعام 530م، ولم يستثنِ القانون سوى حفارى القبور الذين سُمِحَ لهم بدخول أديرة النساء، كما أَلزَم نَصُّ القانون الكنسى رقم سبعة وأربعين الصادر عن مجلس " ترولو" Trullo Council سنة 692م النساء بعدم الاقتراب من الأديرة أو المبيت فيها، ويشملُ هذا الحظر أيضاً الرجال، كما نَصَّ القانون رقم ثمانية عشر لمجلس نيقية الثانى سنة 787م بأنه يحظر على أى رجل دين سواء كان أسقفاً أو رئيس دير بأن يلحق بخدمته امرأة داخل الدير، ومن يخالف ذلك يُعزل من منصبه.

وعلى الرغمِ من وجود هذه التشريعات الكنسية والمدنية وقواعد ديرية فَرضت قيوداً صارمة حيال اقتراب جنس المرأة أو دخولها الأديرة، إلا أن سجلات الأديرة تُفيد بوجود حالات استثنائية مشروعة لدخولها الدير وحالات أخرى غير مشروعة.

بدايةً نَظَّمَ بعض مؤسسي الأديرة بوابات دخول النساء لأديرة الذكور، وخروجهن من مداخلَ خاصةٍ روعى فيها البعد عن طريق الرهبان.

تشدد دير باكوريانوس Pakourianos فى حظره دخول النساء إلى الدير خاصة المتزوجات، لكنه وضع حالة استثنائية سُمح فيها بدخولهن كنيسة الدير لأداء الصلاة فى يوم عيد هذه الكنيسة، بشرط مغادرتهن فور انتهائهن من أداء الطقوس ، كما استثنت بعض الأديرة دخول المرأة الدير على الرغم من خطرهن، فسمحت لهن بدخول الدير لتلقى الصدقات فى يوم عيد الوفاء للعذراء، وأثناء الخدمات التذكارية لذكرى المتوفى فقط.

ولما كانت أضرحة القديسين تمثل منتجعات علاجية وشفائية فى نفوس البيزنطيين، فقد سمحت

أديرة الذكور للمرأة بالدخول، حيث كان مسموحاً للنساءِ والرجال على حدٍ سواء بالزيارة، وكان الزوار يُحضِرون معهم الأَسِرَة والستائر والفراش التى كانوا يستخدمونها للفصل بين الجنسين، كما كان يحدث فى دير كوسميديون Kosmidon ودير هوسيوس لوكاس Hosisos loukas.

- **الأضرحة ومسألة الدفاع والحرب والقتال :**

أصبحت أضرحة القديسين في بيزنطة شيئاً مقدساً لأغلب السكان الذين يتخذونها مزاراتٍ، اعتقاداً منهم أن النجاة من كل بَلِيَّةٍ لن تكونَ إلا من خلال عتبات هؤلاء القديسين.

وحظي القديسون وأضرحتهم برعايةٍ خاصةٍ من الأباطرة، لأن تبجيل رفاتهم بمعناها الواسع يُكسِبُ هؤلاء الحكام نوعاً من الشرعية الدينية في نظر رعاياهم، فضلاً عن الحماية التي يسيغها هؤلاء القديسون على نفوسهم وعلى رعاياهم وعلى الدولة كلها، وربما تظهر أيديولوجية الأباطرة مع هؤلاء القديسين في المخطوطة التي كُتِبَت ورُسِمَت في القسطنطينية بأمر من الإمبراطور باسيل الثاني (976 – 1025م) والمعروفة باسم "مينولوجون" باسيل الثاني Menologion of Basil II وتُسمَى أيضاً – Menologium II Menology of Basill II، والمخطوطة مصممة ككتاب لخدمة الكنيسة تحتوي على مجموعةٍ من حياة القديسين تم تجميعها للاستخدام الليتورجي، ولكنها غنيةٌ بالرسومات، تصور إحداها الإمبراطور كقائدٍ عسكريٍ متوجاً من المسيح، ومستلِماً رموز السلطة من الملائكة ومحاطاً بالقديسين المحاربين، كما أن العمل يظهره كمحاربٍ يدافع عن المسيحية ضد الأعداء، وحتى الشخصيات الأخرى مثل رؤساء الملائكة صَوَّرَها الرسامون بزيٍ عسكري.

كان أباطرة الدولة البيزنطية يُدركون تماماً مدى أهمية توظيف الرفات والمقدسات الدينية والروحية في الجيش وساحات المعارك، حيث إن إحراز رضا الرب ودعمه أمرٌ أساسيٌ وَقَرَ في العقلية العسكرية البيزنطية، وحتى يتحقق ذلك وَظَّفَت بركة وشفاعة القديسين ورفاتهم، وقبل هذا أيقونات العذراء والمسيح والملائكة التي من شأنها تأجيج المشاعر الدينية ورفع الروح المعنوية للجيش في ساحات المعارك.

وفكرة الرمزية في ساحات المعارك كانت قد استُمِدَّت من العذراء والسيد المسيح، فهناك الكثير من الروايات المصدرية التي تشير إلى توظيف رموزها من أيقوناتٍ ورفاتٍ في توحيد الصف تحت راية السُلطة لتجاوز الأزمة، وذلك باستجلاب بركتها وشفاعتها ليتدخل الرب لنجدتهم، وهذا الاعتقاد انتقل إلى القديسين وأضرحتهم.

ولم يكن غريباً في ظل هذا المعتقد أن نرى الأباطرة وباقي أفراد الشعب في أوقات المحن العسكرية يتوجهون إلى الأضرحة ومزارات القديسين الأحياءِ طلباً لشفاعتهم وبركتهم قبل المعركة، حتى صار هذا تقليداً عاماً.

ومن ثَمَّ فقد تم استدعاء فكرة "القديسين المحاربين" لتكونَ من أكثر الأنماطِ تأثيراً في المخيلة الشعبية للمجتمع البيزنطي، وهؤلاء كانوا في الأصل يتألفون من المسيحيين الأوائل الذين كانوا جنوداً في الجيش الروماني أثناء فترة الاضطهاد، كان هؤلاء قد اعتنقوا المسيحية ورفضوا المشاركة في عبادة الإمبراطورية وتقديم طقوس الولاء للإمبراطور الروماني وتعرضوا للعقاب البدني بما في ذلك التعذيب والاستشهاد في سبيل الإيمان، وكان يتم تصوير هؤلاء القديسين العسكريين بشكلٍ مميزٍ كجنودِ مُرْتَدِينَ الزي العسكري في الأيقونات البيزنطية.

ولذلك حَرَصَ الأباطرة على اصطحاب القديسين الأحياء الذين عادةً ما كان يُشَيَّدُ لهم أضرحةً بعد وفاتهم، وصور القديسين الشهداء في المعارك الحربية كرفاق للسلاح الإمبراطوري، ويشهد على ذلك انتشار صورهم على الرايات والألوية والدروع ، مما كان له كبير الأثر على معنويات الجيش.

وقد يفسر هذا حِرْصُ أباطرة بيزنطة في نقل رفات أي قديس استُشهِدَ خارج القسطنطينية كالقديس أرتيميوس St. Artemios - على سبيل المثال وليس الحصر - قائد الحامية الرومانية في مصر - الذي كَلَّفَهُ الإمبراطور قسطنطيوس بإحضار رفات الرسل تيموثي Timothy وأندروس Andrew ولوقا Luke إلى القسطنطينية. وفي عهد الإمبراطور جوليان المرتد (361 – 363م) تم إعدامه لتدميره التماثيل الوثنية في معبد سرابيس، ورفضه تقديم الأضاحي والقرابين للآلهة الوثنية زيوس وأبوللو، وقد نُقِلَت رفاته من أنطاكيا إلى القسطنطينية في بداية القرن السادس الميلادي، ووُضِعَت في ضريحٍ يقع في كنيسة القديس يوحنا بروديروموس الواقعة في حي أوكسيا Oxeia بالقسطنطينية.

وكانت الأيقونة عادةً ما تُظهر القديس وهو في كامل استعداده العسكري، حيث يكون مرتدياً الزي العسكري والصديرية والعباءة ومتسلحاً بالدرع والسيف والرمح والصليب على صدره.

ومن أشهر الشهداء العسكريين التي اشتهرت صورهم القديس ديميتريوس St. Demetrius الذي وُلِدَ لأبوينِ مسيحيينِ تَقِيَّيْنِ في سالونيك سنة 270م، واشتهر باعتباره المدافع عن مدينة سالونيك، حيث عانت من هجماتٍ وحصاراتٍ متكررةٍ من الشعوب السلافية التي انتقلت إلى البلقان، ونُسِبَ إليه العديد من التدخلات المعجزة للدفاع عن المدينة، ومن ثم تعتبره التقاليد اللاحقة باعتباره جندياً في الجيس الروماني ، وهناك جهود بذلت لمعرفة ضريحه ورفاته في مدينة سالونيك؛ وقد تم تناول هذا الأمر في كتاب المعجزات الصادر في كاليفورنيا.

كانت الأضرحة في بيزنطة مرجعاً وملاذاً يلجأ إليه الناس وقت الأزمات والضعف والقهر، وقد تجلى ذلك في الهجوم الإسلامي على سالونيك سنة 904م، حيث هرع الناس إلى ضريح القديس ديميتريوس بحثاً عن معجزاته، مؤكدين ثقتهم في شفاعته وليس أسلحتهم.

كما كان الارتباط بالقديسين ورعاية وتبجيل أضرحتهم أمراً حيوياً بالنسبة لأباطرة بيزنطة، فمن خلال هذه الكفالة والرعاية يكتسب الحكام نوعاً من الشرعية الدينية في نظر رعاياهم ويتمتعون هم ودولتهم بالحماية التي يسبغها هذا القديس على أشخاصهم وعلى رعاياهم وعلى الدولة كلها، مثل حالة الإمبراطور يوحنا تزيميسكيس (925 – 976م) الذي حصل على الدعم الإلهي والعون من خلال القديس ثيودور St. Theodore في قتاله مع السكيثيين، حيث ذهب الإمبراطور إلى مدينة يوكايتا Euchaite في الأناضول، وزار ضريحه لتقديم شكره وامتنانه، ثم نقل رفاته إلى أبرشية ثيودوروبوليس Theodoroupolis لكي تُصبِحَ مزاراً للقديس.

كذلك زار الإمبراطور مانويل كومنين (1143 – 1180م) ضريح القديس ثيودور حيث شارك في أداء الطقوس الاحتفالية.

كما كان ملوك وقادة الحملات الصليبية يتبركون بالرفات المقدسة قبيل خروجهم من أوروبا إلى الشرق، حيث يذكر المؤرخ الفرنسي أودو أوف دويل أن الملك لويس السابع في حملته على الشرق قام بزيارة رفات القديسين وأضرحتهم في القسطنطينية تبركاً بهم.

وعلى الرغم من أن القديسين وأضرحتهم كانوا حماةً للمدن المختلفة برعايتهم الروحية، إلا أن هناك رأيا اتجه إلى أنه على الرغم من أن الكنائس أو الأضرحة حافظت على دورها كمراكزَ مجتمعيةٍ في جميع أنحاء الإمبراطورية، إلا أن بعضها لم يكن قاصراً على كونها دور عبادة، لكنها كانت لأغراضٍ عسكرية.

- **الأضرحة ومسألة الشفاعة والكرامة والمعجزة :**

ينبغي تعريف الشفاعة والكرامة والمعجزة لكون هذه المسميات تدور كلها في فُلْكِ الأضرحة وساكنيها، فالشفاعة مأخوذة من الشفع وهو ضد الوتر، أي جعل الوتر شفعاً، مثل أن تجعل الواحد اثنين

والثلاثة أربعة، وهكذا من حيث اللغة أما في الإصطلاح فهي "التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة" يعني أن يكون الشافع بين المشفوع إليه والمشفوع له واسطة لجلب منفعة إلى المشفوع له، أو يدفع عنه مضرة.

أما الكرامة: لغةً مشتق من التكريم والإكرام بمعنى الفضل والتفضل، وإصطلاحاً هي أمرٌ خارقٌ للعادة، يَظهَرُ على يد الرجل الصالح.

والمعجزة: ليست بعيدة عن المعنيين السابقين فهي أي حدثٍ غير متوقع يُعزى إلى تدخلٍ إلهيٍ، وفي بعض الأحيان يُعزى أيضاً (جزئياً) إلى قديسٍ ما أو زعيمٍ دينيٍ، ويُعتقد أحياناً أن المعجزة هي قطعٌ واضحٌ وشرخٌ يحدث لقوانين الطبيعة.

أما عن هذه المعاني مجتمعةً في الكتاب المقدس فيمكن لشيوخ الكنيسة من خلال الكتاب المقدس أن يتشفعوا للمرضى "هل منكم مريضٌ فليدعو شيوخ الكنيسة ليصلوا عليهم ويدهنونهم بالزيت باسم الرب، والصلاة بالإيمان تنفع المريض، الرب يقيمه" ويؤمن الناس بشفاعة القديسين.

ومن الأسس المبكرة لهذا الاعتقاد بأن الشهداء انتقلوا فوراً إلى حضرة الله، ويمكنهم أن ينالوا النعم والبركات للآخرين، يقول غريغوريوس التزينزي عن والده المتوفي: أنا متأكد أن شفاعته مفيدةٌ الآن أكثر مما كانت تعليماته في الأيام السابقة، لأنه أقرب إلى الله الآن، بعد أن تخلص من قيود الأجساد، وحرره العقل من الطين الذي حجبه.

وقبل هذا كله أيضاً تُسجِل الأناجيل أنواعاً كثيرةً من المعجزات قام بها يسوع في طرد الأرواح الشريرة وعلاجات مختلفة.

ومن هنا فقد آمن المجتمع البيزنطي بالقدرات الإعجازية لساكني الأضرحة، وهناك مئات القصص عن القدرات الإعجازية للقديسين، الأمر الذي أدى إلى زيادة نشاط الحج إلى الأضرحة بحثاً عن تحقيق المفاهيم الثلاثة السابقة.

وإن كان مفهوم الاستشفاء تحديداً المرتبط بالقديس البيزنطي أهم هذه المفاهيم قاطبةً التي كان للديانة المسيحية الدور الأكبر في صياغة مفاهيم وظيفة القديس في ممارسته للعلاج المقدس، حيث رسخ في المخيلة البيزنطية أن القديس يقوم في المقام الأول بدور الوسيط بين المسيح وأتباعه من المرضى، وهذا الدور بشكل عام جذب كل ذي حاجةٍ إلى شفاعةٍ أو كرامةٍ أو معجزةٍ.

وتمثل ذلك في أضرحة الإمبراطورية البيزنطية المنتشرة بكثرة في معظم أرجائها، فعلى سبيل المثال يحدثنا كاتب معجزات القديس أرتيموس أن ضريح القديس بانتيليمون St. Panteleemon جذب المرضى أصحاب الأمراض الجسدية والروحية على حدٍ سواء، وكان المكان علاجاً ناجعاً لمن تملكتهم الأرواح الشريرة.

والأشخاص الذين تتملكهم الأرواح الشريرة والذي يسمى "المس الشيطاني"، أو ما أُطلق عليه "الامتلاك أو الاستحواذ" هم أكثر زبائن الأضرحة لكون مرضهم مستعصياً على الأطباء، وذلك لأن الشيطان أو الروح الشريرة كما اعتقد البيزنطيون سكنت نفس المريض، وجعلته ضحية التأثير البدني والعقلي، وهو بهذه الحالة عُرضةٌ للجنون الذي ربما يدفعه إلى أفعالٍ لا إراديةٍ لا تتمشى مع سلوك البشر العاديين.

وكاتب المعجزات على سبيل المثال يذكر حالةً أخرى عجز الأطباء عن علاجها، مثل حالة الكارتولاريوس Chartoularios الذي أصيب بمرضٍ مؤلمٍ، وهو عبارةٌ عن قُرَحٍ ظهرت على عضوه الذكري، مما اضطره إلى أن يتجه إلى ضريح القديس أرتيميوس وتم شفاؤه عن طريق رؤية منامية،

والملاحظ أن ضـــريح القديس ديميتريوس لم يكن معروفاً فقط بمعجزات الشـــفاء من الأمراض التناســـلية الذكورية المســـتعصـــية، بل عرف أيضـــاً بأمراضٍ أخرى اشـــتهرت وقتها وهي الفتوق والعقم Hernla. والملاحظ أيضـــاً أن الرجال المصـــابين كانوا يأخذون مرهماً معروفاً باســـم Kerote وهو خليطٌ من الشـــمع والزيت كان يوزع عليهم من قِبَلِ القائمين على الضريح .

وكان أيضاً لانتشار السحر والسحرة في المجتمع البيزنطي، وشيوع الاعتقاد في تأثيره بين أوساط المجتمع البيزنطي وما يقوم به السحرة من طقوس لاستدعاء الشياطين ووجود ضحايا، لهذا كله دورٌ كبيرٌ في لجوء الناس إلى الأضرحة، بحثاً عن معجزةٍ أو كرامةٍ لقديسٍ يفك هذا السحر.

و كيف لا يذهب أصحاب الألم إلى الأضرحة؟... وفي هذا السياق تشير الكتابات الهيجوجيوغرافية إلى أطباءٍ كُثر نصـحوا مرضـاهم باللجوء إلى أضـرحة القديسـين لعدم جدوى ما يقدمونه من علاج، بل إن بعضهم أشار إلى أن المرضَ يكمن في الروح أكثر من البدن، وهناك ما يفيد بأن الشفاء الروحي دائماً يؤدي إلى الشفاء الجسدي.

اتجه عدد من كتاب الهيجوجيوجرافيا الباكرين إلى عقدِ مقارنةٍ بين الطب المقدس ونظيره التقليدي، أرادوا من خلالها إبراز تفوق الأول وعجز الأخير، وهي بلا شكّ مقارنةً أرادوا من خلالها الدعاية والترويج للقديســـين المعالجين بوصـــفهم الأطباء الحقيقين في مواجهة من أطلقوا عليهم "أدعياء العلاج"، وداخل هذه المقارنة عكسـوا صـورةً سـلبيةً لمحترفي مهنة الطب التقليدي، واقترحوا ما يمكن أن يطلق عليه عقابٌ لا بد وأن يلحق بأولئك الذين يجدون في الطب التقليدي بديلاً عن الطب المقدس، عقابٌ لا يقتصـــر على تفاقم المرض وتدهور حالة المريض فقط، بل يسـتتبع أيضـاً خسـارة مالية تتمثل في إنفاق المريض كل ما يملك نظير العلاج على أيدي الأطباء، دون أن يتحقق في المقابل تحسـنٌ لحالته، ولذلك حرص هؤلاء الكتاب على أن يضمنوا داخل الصورة السلبية التي أرادوا عكسها عن الأطباء تُهْمَتين مُحَدَّدَتين، الأولى هي فشلهم الدائم وعجز مناهجهم وطرقهم العلاجية، والثانية إلصاق صفات الطمع والجشع والابتزاز المالي بهم.

وعلى أية حال فإن هناك باحثٌ محدثٌ تناول موضـــوع المعجزات التي ذكرتها المصـــادر عن القديسـين في دراسـة يُعَبِّرُ عنوانها عن مضـمونها حيث عنونها بـــ "التوترات والتناقضـات في مجموعة معجزات الفترة البيزنطية" ، وباحثٌ آخرٌ أكد على أن العصـر كان عصـر عوز لا يسـير إلا بالحديث عن المعجزات معنوناً دراسته "هل المعجزة ضرورية للقديس البيزنطي؟".

- **الأضرحة المُخْتَلَطَة :**

قَبْلَ الحديثِ عن هذه النقطة ينبغي السـؤال عن حجم وعدد القديسـين وأضـرحتهم وانتشـارهم في بيزنطة، وهل اكتفى بها أفراد المجتمع البيزنطي أم تطلعوا إلى زيارة أضـــرحة أخرى خارج بيزنطة؟ وما الذي وَلَّدَ فكرة الأضـــرحة المُخْتَلَطَة؟ هل وصـــول اللاتين في الحملة الصـــليبية الرابعة ســـنة 1204م؟ أم المسلمون وانتشارهم في آسيا الصغرى؟... أم العثمانيون الذين أسقطوا الدولة البيزنطية سنة 1453م؟

تشـــيرُ بعض التقديرات إلى أن هنـاك أكثر من [350] أثراً لنحو [476] رفـات قديس تم جلبهـا للإمبراطورية منذ تأسيسـها، وهذه التقديرات بكل تأكيدٍ كانت غير دقيقة عن حجم رفات القديسـين المنتشـرة في بيزنطة، لأن هناك ما يفيد بحدوث عمليات غشٍ كثيرة حدثت في رفات القديســـين، حيث كان بعضـــها لأشخاصٍ عاديين.

وكان هناك هوسٌ لدى البيزنطيين بجمع رفات القديسين من كل أنحاء العالم الوسيط، فهناك ما يشير إلى أن الإمبراطور قســـطنطيوس (337 – 361م) كلف أرتيميوس الذي كان قائداً للحامية الرومانية في مصـر بإحضـار رفات الرسل لوقا Luke وأندروس Andrews وتيموثي Timothy، غير أن أرتيميوس

أُعدِم على يد الإمبراطور جوليان المرتد (361 - 363م)، ونقلت رفاته إلى القسطنطينية، ليكونَ له ضريح بوصفه شهيد في كنيسة القديس يوحنا برودروموس.

ولم يكن يتسنى للبيزنطي تحقيق فكرة اللقاء مع المقدس إلا بوجود الضريح الذي من خلاله يشبع المواطن احتياجات جسده الروحية والعلاجية.

وعلى الرغم من فتح العرب لبلاد الشام الواقعة تحت سلطة البيزنطيين، إلا أن الحج البيزنطي استمر إلى الأراضي المقدسة لزيارة الأضرحة والأماكن المقدسة المنتشرة هناك.

وقضية الأضرحة المُخْتَلَطَة ربما قد ظهرت نتيجة عاملين مهمين، أولهما وصول الصليبيين، وثانيهما وصول المسلمين إلى آسيا الصغرى معقل الدولة البيزنطية.

كان القصد المُعلَن من الحملة الصليبية الرابعة (1202 - 1204م) التي دعا إليها البابا إنوسنت الثالث، هو استعادة مدينة القدس التي يسيطر عليها المسلمون من خلال هزيمة السلطنة الأيوبية المصرية القوية - أقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت - ومع ذلك تُوِّجَت بإسقاط القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي يسيطر عليها المسيحيون وليس مصر كما كان مخططاً في الأصل، كانت القسطنطينية موجودة منذ [874] عاماً في وقت وصول الحملة الصليبية الرابعة، وكانت أكبر مدينة وأكثرها تطوراً في العالَم المسيحي، ومن أكبر المراكز الحضارية الرئيسية في العصور الوسطى التي احتفظت بالمعالم الأثرية بما فيها الأضرحة والكنائس المختلفة.

وكان البابا إنوسنت الثالث Innocent III بعد غزو القسطنطينية قد أعطى تعليماته بالاستيلاء على الكنائس والأضرحة التي هجرها الإغريق للحفاظ على الممتلكات الكنسية، مع الإبقاء على الكهنة والرهبان الذين يعرفون سُلْطَة الكرسي الرسولي، وكان هناك انقسامٌ أصاب الجماعة الدينية المسيحية، التي انقسمت إلى ما أصبح يُعرَف الآن باسم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، واستمر حتى القرن الحادي عشر الميلادي، ويُعتَبَرُ الانشقاق تتويجاً للخلافات اللاهوتية والسياسية بين الشرق المسيحي والغرب المسيحي، والتي تعمقت هويته خلال القرون المتعاقبة.

وبالتالي فإن العنصرين اللذين وُجدَا في بيزنطة هما عنصران منقسمان عقائدياً ولاهوتياً ولغوياً وسياسياً وجغرافياً، ولكنهما يمتلكان مزاراً واحداً، هذا المفهوم ربما هو الذي أوجد مسألة الأضرحة المُخْتَلَطَة.

وكان المستوطنون الفرنجة مفتونين بشدةٍ بالأماكن المقدسة والأضرحة التي كانت في حوزة اليونانيين، وتشير المصادر التاريخية إلى أن المزارات الدينية كانت تستقبل مذاهبَ وعقائدَ مختلفةً على حدٍ سواء.

وربما تكون الأضرحة قد خَلَقَت شيئاً من التناغمِ أو وحدت الهدف بين عناصر المجتمع المُخْتَلَطَة، وفي هذا السياق يذكر "جلين بومان" أنه من المستحيل تجنب مصطلح "التوفيق بين المعتقدات" في مناقشة الاختلاط بين الطوائف في الأضرحة، فقاموس أكسفورد الإنجليزي يُعَرِّفُ التوفيق بين المعتقدات بأنها "محاولة الاتحاد" أو "التوفيق بين مجموعاتٍ متنوعةٍ أو معاكسةٍ من المبادئ أو الممارسات".

أما عن المزارات المختلفة التي استقبلت مسلمين ومسيحيين، فتشير المعلومات التاريخية إلى وجودِ أماكن عبادة وأضرحة لتَعايُشٍ متعدد الثقافات، وتضاريسٍ مقدسة يتم تقاسمها من قِبَل جميع الديانات الإبراهيمية الثلاثة في الإمبراطورية البيزنطية.

وذكرت لنا كتب التراث الإسلامي وغيرها الكثيرَ من المزارات الدينية للمسلمين والمسيحيين على حدٍ سواء في بقاعٍ مختلفةٍ من الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ، مثل قبر وضريح الصحابي "عروة بن ثابت

الأنصاري" ويشير الهرويإلى هذا القبر بأنه "قبرٌ مهيبٌ لمقاتلٍ شهيرٍ"، "ورأيت بجزيرة قبرص مكتوباً على حجرٍ ما هنا صورته: بعد البسملة وسورة الإخلاص: "هذا قبر عروة بن ثابت" توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة (أي مايو 650م) وهذا الحجر مبني في حائط الكنيسة الشرقية". وللأسف نفتقر إلى أي تفاصيل حول الموقع الفعلي للمبنى.

وهناك قبرٌ وضـــريحٌ آخرٌ هو قبر "أم حرام بنت ملحان" بقبرص، وهي الســـيدة التي أنجبت خادم النبي صـلى الله عليه وسـلم "أنس بن مالك"، قال بن حيان بعد إخراج حديث الليث: قبر أم حرام بجزيرة في بحر الروم، يقال لها قبرص بين بلاد المســـلمين وبينها ثلاث أيام وجزم بن عبدالبر بأنها حين خرجت من البحر إلى جزيرة قبرص، قربت دابتها فصرعتها، وعُرِفَ قبرها عند المسلمين والروم بقبر المرأة الصالحة.

وفي الوقت الحالي يشـار إلى أن هذا القبر محفوظ داخل تكة تعرف باسـم تكة "هالة سـلطان Hala Sultan" على شـاطئ بحيرة سـالت The Salt Lake بالقرب من لارناكا Larnaka والملاحظ أن كل كتب التراث ذكرت أنها دُفنَت في المكان الذي سقطت فيه من دابتها، دون إضـافة أية تفاصـيل حول الموقع الدقيق للمقبرة، ومع ذلك فإن هناك إشـــارات إلى وجود ظاهرة عبادة دائمة حول القبر، يَعرِفها الســـكان المحليون باسم قبر "المرأة المباركة".

وهناك مزارٌ دينيٌ آخرٌ شهيرٌ، هو ضريح وقبر(أبو أيوب الأنصاري)، وهو صحابيٌ من الأنصار، توفي مريضـاً وهو في جيش يزيد بن معاوية (680 – 683م) المتوجه إلى القسـطنطينية، وكان أبويوب قد لَحِقَ بجيش يزيد بعد أن استقر الأمر لمعاوية، إلا أنه اشتد به المرض أثناء حصـار القسـطنطينية، وأوصـى أصـحابه بدفنه في أرض العدو، وتم دفنه في أصـل حصـن حول القسـطنطينية (51هـــ)، وقيل إن الروم يتعاهدون قبره، ويستسقون به.

ويُعتَبَرُ قبر أبو أيوب أقدمَ مزارٍ إسـلاميٍ في العاصـمة البيزنطية جذب احترام وتقديس البيزنطيين، وقد بُنِي مسـجدٌ صـغيرٌ بجوار الأسـوار، وكان الرجل علامةً إلهية تنبئ بالفتح الإسـلامي المسـتقبلي لمدينة القسطنطينية.

وعلى الحدود البيزنطية التركية بالقرب من (آفيون - قراحصـــار Afyon – Karahisar) يقع قبر الشـــهيد المســـلم "أبومحمد البطال أو ســـيد بطال"، والذي كان مزاراً للمســـلمين والمســـيحيين، بل إن أحد المؤرخين أشار إلى أن "سيد بطال" كان "صاحب كرامات".

ويرجع تفسـير ظاهرة وجود الأضـرحة المُخْتَلَطَة إلى انتشـار الإسـلام في الأناضـول بعد أن توغل السـلاجقة في آسـيا الصـغرى عقب معركة ملاذكرد سـنة 1071م، حيث انتقلت هذه البلاد من الحضـارة اليونانية والديانة والآداب المسيحية إلى العقيدة والحضـارة الإسـلامية بما تحمله من نظمٍ وآدابٍ، وكان لا بد من حدوث إندماج بين السكان الأصليين والمهاجرين، خاصـةً وأن الحضارة البيزنطية بدأت في الاضمحلال بوجود ظاهرتين، هما البداوة وانتشـار الإسـلام، وحتى من الناحية السـيكولوجية نجد أن التفوق السـياسـي والثقافي للأتراك السلاجقة - فضلاً عن العدالة والحرية الدينية - قد أدي دوراً كبيراً في هذا الشأن في الوقت الذي أخذت الثقافة المسـيحية في التأخر، واهتزت المبادئ الدينية المسـيحية إلى درجةِ أَنَّ طبقة رجال الدين المسيحي قاموا في بعض الأحيان بتشجيع اجتياح السلاجقة وتوغلهم على حدود الدولة البيزنطية.

ولقد اتسـمت سـياسـة السـلاجقة المسـلمين مع المسـيحيين في آسـيا الصـغرى - جسـد الإمبراطورية البيزنطية الأساسي - بالعدلِ والتسامح والحريةِ الدينيةِ، والتي كَفَلَت للمسيحيين الاحتفاظ بدينهم، حيث لم يكن هناك تعصـبٌ ديني، وقد جذبت هذه الروح التي تميز بها السـلاجقة روح الود والتسـامح الديني قطاعاً كبيراً من مسيحيي آسيا الصغرى إلى الإسلام.

ومسألة الأضرحة بشكلٍ عام والأضرحة المُخْتَلَطَة بشكل خاص قد أدي التصوف دوراً كبيراً في نشأتها، فقد وَجَدَ الصوفية في منطقة الأناضول أرضاً خصبةً، حيث انتشر بشكلٍ كبيرٍ، فمن أمثال هؤلاء الصوفية جلال الدين الرومي الذي أدي دوراً كبيراً في الود والوفاق بين فئات المجتمع الدينية المختلفة، والمتصوفون كانوا بحق العامل المشترك بين مختلف الديانات والفِرَق الدينية ليس لكونهم من أصحاب الحلول الوسطى، وإنما لكونهم من أصحاب مبدأ البعد عن المحاولات والخلافات والمشاحنات، وكان جلال الدين الرومي يدعوا أتباع الديانات المختلفة أن يتوحدوا على كلمة الله، وحول الأفكار التي تدعوا إلى أمور الخير والإنسانية، وقد سُئِلَ جلال الدين الرومي في أحد المناسبات عن السعادة التي يجدها أهل الأديان الأخرى في أفكاره وتعاليمه، وكيف يستطيعون فهمها في حين أن بعض المسلمين كان يجد صعوبةً في فهم هذه الأفكار، فأجاب بأن أهل الذمة هم أيضاً يؤمنون بالله وأن هدفهم هو نفس هدف المسلمين، ولكن الطريق الموصل إلى الهدف يختلف، وعلى هذا الأساس فهم يفهمون المعنى المقصود من كلماته، ولقد كان لجلال الدين الرومي مريدون ممن ينتمون إلى الأديان الأخرى، كما كان هو بدوره يقوم بإقامة علاقاتُ صداقةٍ مع رجال الدين من الأديان الأخرى، وكان يزور الكنائس والأديرة، كما كان يأتي إليه القساوسة لزيارته والتناقش معه ليس فقط من ربوع آسيا الصغرى فحسب، ولكن من إسطنبول (القسطنطينية) أيضاً، وظل جلال الدين الرومي في آسيا الصغرى حتى وفاته سنة (1285م / 672هـ) وتحول قبره إلى مزارٍ لقرونٍ عديدةٍ، اشتهر فيها حيث يلتقي حوله الناس بما كان يعطيه من طاقةٍ وقوةٍ وروحيةٍ.

والملاحظ هنا أن الطرق الصوفية زادت وانتشرت بشكلٍ واسعٍ في آسيا الصغرى، كالطريقة الرفاعية والخلوتية والأحمدية والكاذرونية والقلندرية والحيدرية وغيرها، وهي خارج نطاق دراستنا، لكن الشئ المراد توضيحه هنا هو مدى تأثر الصوفية ورجال التصوف بالمسيحيين واليهود الوطنيين في الأناضول من خلال التفاعل الاجتماعي، فبلا شك أن التصوف الذي نشأ نشأةً إسلاميةً في البداية كانت حالته كحالةِ غيره من العلوم، لم يَسْلَمْ مع الزمن من تأثيراتٍ فلسفيةٍ ودينيةٍ غير إسلامية، فكل الحركات عموماً لم تكن أبداً خالصة من المؤثرات الأجنبية، وبالتالي فإن التصوف لم يكن أيضاً خالصاً من عناصر غريبة عنه، فإن كثيرين من المتصوفة كانوا غير عرب يَحمِلون معهم إلى الإسلام اعتقاداتٍ وأفكاراً وتخيلاتٍ غريبةٍ، وخلا أكثرها فيما بعد من التصوف، والأبحاث الحديثة تُثْبِتُ بم لا يدع مجالاً للشك أن التصوف الإسلامي قد تأثر بالمسيحية، وذلك أن كثيراً من صوفية المسلمين كانوا مسيحيين، أو يرجعون إلى أصولٍ مسيحيةٍ، الأمر الذي جعل صوفية المسلمين لا يرون حرجاً في الأخذ من المسيحية، وتبنى تعاليم رهبانها الذين سمعوا امتداح الله لهم في القرآن بأنهم لا يستكبرون.

وكان جسد الإمبراطورية البيزنطية الرئيسي في آسيا الصغرى يَعُجُّ بمجتمعٍ مُخْتَلِطٍ (يونان وأرمن وترك وأديانٍ مختلفةٍ) فالأرمن واليونانيين كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في دير القديس شاريتون .St Chariton، كما وُجِدَ اليهود أيضاً، ولقد كان هناك مستوى ودٍ واحترامٍ متبادلٍ بين المسيحيين والمسلمين في صورٍ كثيرةٍ، حتى أن كل فريق كان يُبَجِّلُ رجال الدين عند الفريق الآخر، فكان المسلمون يحترمون ويُجِلُّونَ القديس جورج والقديس أمفيكيوس St. Amphilochius، والقديس نيقولا St. Nikula، كما احترم المسيحيون رجال الدين المسلمين، مثل خضر إلياس والحاج بكتاش، وبلغ من احترام وتبجيل المسلمين للقديس جورج أن ظهر على بعض نقودهم التي صدرت عن الحكام المسلمين في آسيا الصغرى.

ولم تختلف السياسات الدينية مع ظهور العثمانيين الذين أسقطوا البيزنطيين سنة 1453م، فقد استمرت سياسات التسامح والمشاركة مع أهل الأديان الأخرى، والتي وُصِفَ المجتمع في ظل هذه السياسات بأنه كان بوتقة انصهارٍ دينيةٍ ونمطٍ ثقافيٍ، تم تعزيزه من خلال الدور الذي لعبته في مجتمعات مختلطة مثل تلك التي لعبته سلطنة سلاجقة الروم من قِبَل الشخصيات الكاريزمية الممثلة في الدراويش (الصوفية مثل جلال الرومي وبكتاش وغيرهم) الذين رَوَّجوا للأفكارِ التوفيقية عن عمدٍ وكانوا قادرين على إبهار المسلمين

والمسيحيين على حدٍ سواء، وعَزَّزَ ذلك اعتياد الدراويش زيارة الكنائس وأماكن العبادة المسيحية من جهة، وحضور المسيحيين الأناضوليين احتفالات الدراويش وتكريم قبورهم من جهة أخري .

وهكذا انتشرت عمارة الأضرحة في معظم بقاع آسيا الصغرى، وكانت هدفاً لزيارة عناصر المجتمع المختلفة لتكون هذه البقاع أصل انتشار الأضرحة والأضرحة المُخْتَلَطَة.

- **احتفالات الأضرحة :**

أَحَبَّ البيزنطيون الاحتفالَ بشكلٍ عامٍ مثل أسلافهم اليونان والرومان، واحتفلوا بالأعياد العلمانية، مثل عيد ميلاد الإمبراطور، وإحياء ذكرى تأسيس المدن، ومواكب النصر الإمبراطورية، ومنشآت المجالس المدنية، ومع ذلك فإن الغالبية العظمى من الأعياد التي احتفل بها المسيحيون البيزنطيون كانت دينية، شارك في مثل هذه الأعياد جميع فئات المجتمع، بما فيهم موظفو الحكومة والإمبراطور وأعضاء السلك الكنسي، وكانت هناك أيام يُعَطَّلُ فيها العمل، وأيامٌ أخرى جُعلت نصف عطلة.

وقراءة خريطة الأضرحة بالدولة البيزنطية تؤكد أنه لا يوجدُ مكانٌ يخلو من قديسٍ وضريح، فهو الحامي الذي يخفف عنهم أوجاعهم ويذود عنهم وقت الشدةوالمؤرخ الكنسي إيفاجريوس Evagrius أكدَ على طلاقة عدد أضرحة القديسين التي جذبت الناس من شتى الأنحاء.

كما أكد على كثرة عدد الأضرحة أحد الحجاج الروس الذين زاروا العاصمة البيزنطية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وبالتالي فقد انتشرت احتفالات الأضرحة في كل مكانٍ حول المزار الخاص بالقديس في طقوسٍ احتفاليةٍ مصحوبةٍ بمواكبٍ تُحمَل فيها المشاعلَ والشموعَ والمصابيحَ ويُحرَق فيها البخور، كذلك كان يُحتفل سنوياً بعيد نقل رفات القديس أو جلبه إلى العاصمة، فعلى عهد الإمبراطورة ثيودورا Theodora احتُفِل بنقل رفات القديس نقفور الأول Nikephores I إلى القسطنطينية في سفينة إمبراطورية من خلال احتفاليةٍ كبيرةٍ شارك فيها جموع الشعب، كما احتُفِلَ أيضاً بالذكرى السنوية لنقل رفات القديس يوحنا ذهبي الفم إلى كنيسة الرسل المقدسة، وذلك على عهد الإمبراطور البيزنطي ليو السادس (866 - 912م)، حرص فيها الإمبراطور في هذا اليوم على إتاحة رفات القديس للجموع المحتشدة للاحتفال.

كما اتخذ الاحتفال بالأعياد الدينية في القسطنطينية تعبيراتٍ مميزة خاصة به، فغالباً ما تضمنت الأعياد المرتبطة بالمسيح ورسله وبعض القديسين العظماء مرافعات من القصر الإمبراطوري تجري في العديد من الكنائس أو الأضرحة، وتبلغ ذروتها في الكنيسة أو الضريح يوم عيد القديس، وكان يصاحب ذلك تجمعاتِ الناس مصطحبين الشموع والمصابيح والعطور وعجائب أخرى تصب في التباهي بالمظهر.

وكانت تنتشر بيوتُ الضيافةِ لاستقبال وإطعام الزوار في مناسبات الأعياد، وكانت جزءاً من الممارسة العرفية للأديرة، وحرص زوار الأضرحة في هذه الاحتفالات العودة إلى منازلهم بقوارير الماء المقدس، الذي اكتسب قداسته بوجوده بالقرب من القبر، والزيت المقدس وحفناتٍ من ترابِ أرض الضريح، فضلاً عن بعض الهدايا التذكارية، كالأيقونات والأوعية المقدسة ومشاركتها مع الأقارب والأصدقاء الذين حالت الظروف دون المشاركة في مثل هذه الاحتفالات، كما حرص الزوار أيضاً على إطلاق أسماء القديسين على أطفالهم حديثي الولادة، والمشهور منها مثل جورج وديميتريوس وميناس بالنسبة للذكور، وماري وآنا للنساء.

هكذا كان للأضرحة تاريخٌ طويلٌ ومتواصلٌ من النشاطِ خلال ألف عام من الحضارة البيزنطية، وكان عُمْرُ البعض أقصر، ومع ذلك ظلت وظائف الأضرحة والأنشطة الدينية والاحتفالات قائمة ومتسقة إلى حدٍ ما، وكانت هناك مواكب منظمة وخدماتٍ طقسية، وقراءات لحياة ومعجزات قديس، ومآدب، كما رافقت المعارض التجارية العديد من الأضرحة وأعيادها.

- **خاتمة :**

لم تقصد الدراسة إلا أن تكون عينةً لنمطٍ من معايشة الماضي كثقافة، وهي معايشة عميقة يمكنها أن تَصْدُرَ عن فعالية مذهلة لراسب ثقافي وهي الثقافة القديمة المتوارثة في استمراريتها التاريخية.

إن زائري الأضرحة في بيزنطة، وهم في معظمهم من المواطنين البسطاء، يقومون عَبْرَ هذا النوع من الممارسة الثقافية التي تؤدي فيها الزيارة دوراً حاسماً وكلياً في إنشاء حوارٍ غير مكتوب وغير مألوف مع أحد القديسين هدفه المباشر الإبلاغَ عن ألمٍ أو وجعٍ أو ظلمٍ أو قهرٍ اجتماعي، وهذا الحوار تنتفي فيه أية بروتوكولات في المخاطبة وليس فيه كلفة بين الحي والميت، بين الإنسان البسيط والقديس، وهو نوع من التراسل العادي الذي يمكن أن يقوم به شخص مع آخر، وإن كان هذا الحوار يجري تحت تأثيرِ عقيدةٍ راسخةٍ تقولُ بأن للموتى نفوذاً لا يقاوم، وسُلْطَةً لا تنازع الأحياء.

إن مواصلة الحوار بين الأحياء والموتى لم يكن وليدَ العصر البيزنطي، فهذا التقليدُ يعودُ إلى القدم، والبيزنطي فيما كان يفعله هو أنه كان يواصل حوار سلفه القديم.

وهكذا اتخذ الضريح باعتباره مكاناً مقدساً في المخيال الشعبي البيزنطي بعداً روحياً مهيباً، إذ يغدو فضاءاً أو حرماً شأنه في ذلك شأن الأماكن الدينية، إن لم يكن يجاوزه قدراً ومكانة في اللاوعي الجمعي.

ولا شك أن هذه الرواسب اللاشعورية المتجذرة في المخيال الشعبي البيزنطي هي التي جعلت الزائر يعتقد أن البركة لا تنقطع بموت القديس، بل تستمرُ في النشاط والفاعلية، فتنتقل إلى جدران الضريح وترابه، وإلى كل شيء لامسها القديس لأنها تحمل بركته.

وأخيراً فإن الدين والمقدس سوف يستمران في الوجود، وهما ضروريان من أجل الوجود الإنساني ذاته، لكن المؤكد أن المقدس في زحفه يدمر كل المعاني الدنيوية للوجود العقلاني

فهرس موضوعات الكتاب

قضايا مجتمعية

الفصل الأول :

- **قضية الأُمِّ والمشكلات السكانية (صورة المرأة الأُمِّ في المجتمع البيزنطي)..... 3**

الفصل الثاني :

- **قضايا العميان في المجتمع (العميان فى الدولة البيزنطية)..... 23**

الفصل الثالث :

- **قضايا المسنين في المجتمع (رعاية المسنين في الدولة البيزنطية)..... 35**

الفصل الرابع :

- **قضية المواطنة و حقوق الانسان (المواطنة والخلاص المسيحي فى مصر البيزنطية)..... 51**

الفصل الخامس :

- **قضية الأضرحة و أثرها علي المجتمع (الأضرحة وأثرها على المجتمع البيزنطي)..... 65**